قبس من الوادي المقدس

«اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع»

توفيق بن خلف الرفاعي

قبس من الواد المقدس

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

قبس من الواد المقدس

تأليف
توفيق بن خلف بن عبد اللَّه الرفاعي

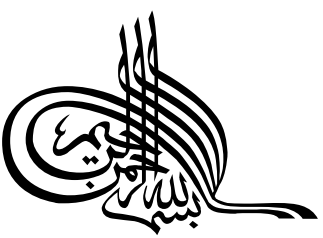
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحديث عن الخشوع في الصلاة إنما هو حديث عن موضوع أوله أعظم كلمة (اللَّه)، وآخره أعظم كلمة (اللَّه) - سبحانه وتعالى.

فأول الصلاة (اللَّه) حيث (اللَّه أكبر) هو تحريمها، وآخر الصلاة (اللَّه) حيث السلام هو ختامها (السلام عليكم ورحمة اللَّه)[١]، فهل من موضوع أجل وأكرم من موضوع قد أحاطته كلمة «اللَّه» من كل جهاته... وهل قبل هذا الموضوع أو بعده موضوع؟! ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

فإذا ابتدأ هذا اللقاء بـ (اللَّه أكبر)، فإن كلمة (اللَّه أكبر) لا تزال تتخلل صلاته، وتطرق قلب هذا الواقف بين يدي اللَّه من أول صلاته حتى ختامها.

فأي قلم يمكن أن يُبين أو يبيِّن عن هذا الحال... أو يقدر أن يترجم

(١) عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول اللَّه ﷺ كان يسلم عن يمينه، وعن شماله حتى يرى بياض خده: السلام عليكم ورحمة اللَّه، السلام عليكم ورحمة اللَّه» رواه أبو داود (٩٩٦)، وصححه الألباني.

للمعاني العظمى لهذا اللقاء. . .؟!

كيف وقد كان دخول وقت الصلاة باسم (اللَّه)، وختام النداء للصلاة كذلك باسم (اللَّه)، فابتداء الأذان بـ«اللَّه أكبر» وختامه بـ «لا إله إلا اللَّه».

هكذا أراد اللَّه واختار سبحانه. . . فربّنا لم يختر لابتداء هذه الصلاة وانتهائها إلا اسم ذاته، «اللَّه» . . . وهو الاسم العلم الدال على جميع أسمائه وصفاته. . . فأي عظمة أكبر من هذه يمكن أن تفهم العبد عظمة الصلاة وغايتها.

وقبل أن نبتدأ الحديث عن الخشوع في الصلاة لابد أن نعرف حقيقة؛ وهي: **أن الخشوع لا يملكه أحدٌ إلا اللَّه**، ولا يوجده في القلب إيجاداً إلا اللَّه، ولا ينزله أحد على العبد إلا اللَّه سبحانه. . فالخشوع كالطمأنينة والسكينة لا يملك إنزالهما أحد في قلب العبد إلا اللَّه سبحانه. . . ولذلك فإن من يكتب أو يخطب وَيظن أنه يُلْقي الخشوع في القلوب فإنه مخطِئٌ. .

فإن حقيقة الخشوع كحقيقة السكينة والطمئنينة، لا يملكهما بشر ولا

يتحكم فيهما إحد إلا اللَّه، فلو أن العبد قرأ عنهما آلاف الكتب لم تنزل عليه سكينة ولا طمأنينة... نعم ربما يتصورها تصوراً لكنه لن يتذوقها... كذلك الخشوع فإنه لا يملك حقيقته إلا اللَّه وحده وما ذاك إلا لأنه تابع للقلب، والقلب بيد اللَّه يقلبه كيف يشاء، ويقذف فيه ما يشاء... فإذا أرى العبد ربه من قلبه ما يرضيه أنزل اللَّه فيه الخشوع كما قال سبحانه عن سبب إنزاله السكينة في قلوب أهل بيعة الرضوان ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الحجرات: ١٨].

ولذا أعرضت عن أي كلام إلا ما أنزل اللَّه، إذ من كلامه سبحانه ينبع الخشوع ويتفجر، وبه يخلق الخشوع في القلب - بإذن اللَّه - إيجاداً من العدم، وإني لأرجو أن أكون قد هُديت إلى ذلك... حين أُريت أن صلاتنا كلها في آيات اللَّه التي روت قصة لقاء موسى عليه السلام بربه سبحانه وتعالى في الواد المقدس... وسوف ترى كم كنا نمرّ بواديها ونقرأها في كل وقتٍ وهي تتحدث عن صلاتنا خاصة... ظاهرها وباطنها ونحن لا ندري.

ولا بد هنا أن يتذكر القارئ جيداً أن الخشوع ليس أمراً اختيارياً أو مستحباً، لا أثر لوجوده في قبول الصلاة أو رَدِّها، فالنبي ﷺ استعاذ باللَّه من أغلى شيء وهو القلب الذي لا يخشع كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «اللَّهمّ إنّي أعوذ بك من الأربع: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع»[1].

نعم: ليس بمقدورنا أن ننزل الخشوع أو نوجده في القلب، ولكن بإمكاننا أن نبين ونجدّ ونجتهد وندعو ونلحّ ونتزلف إلى اللَّه ونقدم الأسباب، **ولذا كان لابد لكل مسلم أن يعرف الفارق الحق ما بين الصلاة الخاشعة والصلاة غير الخاشعة**... وكلاهما صلاة.

إن الفارق الحقيقي بين الصلاة بخشوع والصلاة منزوعة الخشوع هو الفارق بين أن تلاقي اللَّه سبحانه حقيقة فَيُقْبل عليك، وبين أن تلاقيه ولكنه يعرض عنك...! وأي عبد في قلبه ذرة إيمان يقوى على إعراض اللَّه عنه؟!

إنه الفارق بين أن تكتب لك صلاتك كلها أو تسعها أو قريباً من ذلك، وبين أن تخرج من صلاتك بغير شيء... أو قريباً من ذلك!

(١) رواه النسائي (٥٤٦٧)، وصححه الألباني.

إنه الفارق بين أن تكون صلاتك صلة باللَّه حقاً، وبين أن تكون صلاة بلا صلة ولا اتصال ولا حياة قلب ولا غذاء روح، ولا زاد للحياة، ولا معينة على كلمة الحق، ولا سبب للصبر والنصر.

إنه الفارق بين أن ترفع هذه الصلاة فتخترق الحجب كلها وكأنها تريد أن تبلغ المبلغ الذي شُرعت منه أول ما شرعت... وبين أن تُردّ على صاحبها الذي صلاها بغَير خشوع.

إن الصلاة الخاشعة عنوان الفلاح كله ومفتاح الخير كلـه، ألم يقل اللَّه سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٢] بينما قال عن آخرين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

إنها عنوان عودة الأمة إلى عزها ومجدها فإن أول ما يذهب من هذا الدين الخشوع... والنبي ﷺ يقول: «أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع حتى لا يرى فيها خاشعاً»[1] إذن فإذا عاد أول الذاهبين ورأس

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٢٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٧٦).

المفقودين عادت البقية من بعده وعادت الأمة سريعاً.

إنها تعني صلاح هذه الحياة واصطناع الرجال الصانعين للحياة الطاهرة من خلال الصلاة الطاهرة المطهرة لأنها صلاة خاشعة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

إنها تعني النجاة يوم القيامة فإن أول مقررات يوم القيامة في الحساب هو صلاح الصلاة... وهل تسمى صلاة صالحة إذا كانت منزوعة الخشوع؟! فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إنّ أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت، فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت، فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال الرّبّ - عزّ وجلّ - : انظروا هل لعبدي من تطوّع فيكمّل بها ما انتقص من الفريضة ثمّ تكون سائر أعماله على ذلك»[1]، فالسؤال ليس عن أدائها ولكن عن صلاحها.

(١) رواه الترمذي (٤١٣) وصححه الألباني.

إنها تعني بعث الحياة الحقيقية في قلب الأمة النابض ومصدر حياتها الحق وهو المسجد: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

* * *

إلى الواد المقدس

عِشْ رحلة موسى عليه السلام تفصيلًا من خلال كلام اللَّه... حاول أن تقرأها من مقام الإحسان... حاول أن تكون كأنك من الشاهدين... قبل أن تدخل في تفاصيل الآيات فترى تفاصيل الصلاة.

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ

أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١- ٣٦].

وقال سبحانه عن هذه اللقاء في سورة القصص:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ

ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا
فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسًا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي
هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٢٩- ٣٥].

❊ ❊ ❊

أقباس[١] من آيات الواد المقدس

مقدمة الأقباس:

لماذا موسىٰ عليه السلام وصلاتنا؟[٢]

هل من نبي من الأنبياء السابقين عليهم السلام قد جعل اللَّه له تدخلا في مشروعية صلاتنا هذه حين شرعت في السماء إلا موسى عليه السلام؟

وهل بلغ إلى علم أحد أن اللَّه سبحانه قد كلَّمَ بشراً على هذه الأرض إلا الكليم موسى عليه السلام؟

وهل تجد أيها المصلي وصفاً مماثلًا للقاء موسى عليه السلام ربه عند الشجرة إلا لقاءنا ربنا - سبحانه . في صلاتنا؟!

إذاً فلموسى عليه السلام ارتباط في أصل مشروعية صلاتنا كما له ارتباط في وصف مشروعيتها بل في روحها وروح كل جزئية فيها.

---

(١) القبس النار، والقبس الشعلة من النار، والقابس طالب النار، وهو فاعل من قبس، والجمع أقباس لا يكسر على غير ذلك. انظر لسان العرب مادة (قبس).

(٢) هذه المقدمة بداية الجواب، وسوف يتبني لنا الجواب الكافي عند تمام الكتاب بإذن اللَّه.

لا . . ليس وجه الشبه عاماً أو مجملاً . . . بل إن الترابط تفصيلي؛ فكل جزئية من لقاء موسى عليه السلام تشد لقاءك من الصورة إلى الحقيقة . .

كل كلمة يحكيها اللَّه - سبحانه - في كتابه العزيز عن لقاء موسى عليه السلام . . . إنما هي سقاء حياة لشجرة صلاتنا، وروح وحيوية للقلب ليحضر اللقاء . .

ابتداء من رؤيته النار . . . إلى نهاية اللقاء بانطلاقه بالتكاليف وذهابه إلى فرعون . . فهي جزئيات تمثلت في صلاتنا . . . **حقائق تُنَبِّهُ المقبل على لقاء ربه؛ إنّ لقاءك هذا لقاء حقيقي، وليس صورة لقاء** . . وأي شاهد علىٰ حقيقة لقاء موسىٰ ربه سبحانه من أن يقول اللَّه له هناك: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما في سورة القصص، ويقول له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ كما في سورة طه.

فلا تغفل.

ومن هنا جاء هذا المبحث المختصر علَّه يمد يد قارئه ليتناوش قبساً واحداً - على الأقل - من ذاك الواد المقدس . . . فإن أقباسها اجتمعت لموسى عليه السلام في الشجرة، واجتمعت لنا بكلمات اللَّه - تعالى - بوصف

ذاك اللقاء في القرآن. . . واجتمعت لقلب المؤمن القائم بين يدي ربه - سبحانه - في هذه الصلاة، وفي الواد المقدس قال اللَّه سبحانه لموسى عليه السلام مباشرة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ وفي لقاء اللَّه تعالى قال اللَّه مباشرة: فرض اللَّه علىٰ رسوله ﷺ الصلاة.

تعال أيها المصلِي إلى الواد المقدس. . . ولنأخذ ما استطعنا من تلك الأقباس التي لا تحصر ولا توصف قبساً إثر قبس . . . نأخذها من معين كلام صاحب اللقاء، اللَّه رب العالمين - سبحانه.

❊ ❊ ❊

القبس الأول: طابع الرحلة:

لقد كان لقاء موسى عليه السلام ربَّه من خلال رحلة انتقال في هذه الأرض، وكانت خير رحلة في هذه الأرض، وكان لقاؤه ذاك هو خير ما في رحلته بل في حياته، وكلُّ خير كان بعدها إنما كان من بركتها... وكل حياته عليه السلام خير وبركة.

وهل جاء تشريع صلاتنا إلا في رحلة.. رحلة رسول اللَّه ﷺ في الإسراء والمعراج..؟

ليبقى طابع الرحلة إلى اللَّه لا يفارق الصلاة أبداً..

ولتبقى الصلاة عنوان النجاة في رحلة الحياة.. كيف لا وعنها أول سؤال بعد انتهاء الرحلة وابتداء الحساب... إنها رحلة الروح... رحلة الفكر والتفكر... والقلب والتدبر.

* * *

القبس الثاني: ترك الأهل والمشاغل

لقد ترك موسى أهله ذاهباً إلى ربه قائلًا لهم: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾... وأنت تخرج من بيتك إلى بيت ربك تاركاً أهلك وراءك، مفرغاً قلبك من كل شاغل... فما أسوأ أن يحمل القلب همّ أهله، وقد تركهم وراء ظهره ذاهباً إلىٰ ربه؟!

أما الأهل الذين تركتهم وراءك فقد جعل اللَّه لهن الأجر الأعظم حيث هنَّ في بيوتهن وقرارهن، وقد قال النبي ﷺ: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها»[1].

* * *

(١) أبو داود (٥٧٠) وصححه الألباني.

القبس الثالث: الكل يطلب نوراً:

لقد رأى الكليم موسى عليه السلام نور النار فقال لأهله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ وسار يطلب النور حيث رآه... **وهل تطلب بمشيك إلى بيت اللَّه إلا النور من اللَّه**، ولذا تقول في دعاء المشي إلى المسجد: «اللَّهمّ اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً»[1]، **فخذ من جدية موسى عليه السلام في طلبه جدية وحرارة لطلبك هذا**، أشعل في قلبك الأمل بتحقيق اللَّه لك مطلبك، **فلقد أعطى اللَّه - سبحانه وتعالى - موسى عليه السلام النور حتى ملأ صدره وفاض على أمته**، فلقاؤه - سبحانه - نور، وكلامه نور وهو - سبحانه - النور... فكيف لا ترجع أيها الملاقي ربك من واديك المقدس بالنور؟!

وهل علّمنا ربنا سبحانه هذه الكلمات ونحن متوجهون إلى بيته إلا ليجيبنا ويمنحنا..؟! فإن من دلَّ موسى عليه السلام على النار وأعطاه النور هو من هدانا إلى الإسلام وإلى المسجد ثم علمنا هذه الصيغة - من الدعاء -

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).

في طلب النور، وهو من يعطينا النور ويفيض علينا من فضله... وهو الكريم - سبحانه؛

لو لم تُرِد نيل ما نرجو ونطلبه   من فيض جودك ما علمتنا الطلبا

❊ ❊ ❊

القبس الرابع: إزالة الأذى والتطهر:

لقد قال اللَّه - سبحانه - لموسى: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢]. فلماذا النعلين خاصة؟

«**فتأمل وانظر!** أي شيء أشبه من بين ثيابنا كلها بالذنوب من النعلين؛ حقارة ووطئاً وتقذراً..؟»[١] هكذا جعل اللَّه الوضوء إزالة للذنوب من الأعضاء قبل الصلاة، وهكذا جعل اللَّه التطهر من النجاسات الحسية قبل الوضوء، إذاً فهي الطهارة والتطهر ظاهراً وباطناً، مكاناً وثياباً وبدناً، إن

(١) علماً بأن الصلاة بالنعلين سنة أحياناً، ولكن المقصود منزلة النعلين بالنسبة لبق٥ية الثياب، لذا ترك لبسها ﷺ أحياناً في حياته وكذا في صلاته ولم يترك لبس بقية الثياب حتى العمامة... ثم إن الآمر هنا اللَّه... وكفى.
ولعل من هذا أخذ اليهود ترك الصلاة بالنعلين، على عادتهم بالأخذ بالمظاهر والتعلق بها وترك الحقائق.
ثم لابد من الإشارة في هذا اللقاء إلى لزوم ترك شيء من لوازم الإنسان إذا أقبل على الله، وأي شيء يمكن أن يترك سوى النعلين في هذا اللقاء؟!! والنعلان يحملانك ويحميانك وأنت الآن مع الله فلا حاجة للحمل والحماية... فهنا اللَّه... ولعل هذا من حكمة ترتيب ذكر ربوبيته قبل الأمر بخلعهما فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾، ومن هنا تقدس الواد في تلك الساعة فأذن لموسى بالدخول بغير نعليه في تلك الساعة فحسب.

في هذا الوضوء إزالة للذنوب بل خلعاً لها بحق... كما يصف هذه العملية رسول اللَّه ﷺ، فعن عمر بن عبسة رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي اللَّه فالوضوء حدثني عنه، فقال: «ما منكم رجل يقرب وضوءه، فيتمضمض ويستنشق فينتثر إلا خرت خطايا وجهه، وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره اللَّه إلَّا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلَّا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى فحمد اللَّه، وأثنى عليه، ومجده بالذي هو له أهله، وفرغ قلبه للَّه إلا انصرف من خطيئته كيوم ولدته أمه»[1].

إن من عرف عظمة الإعداد للقاء اللَّه بالوضوء عجز ماء وضوئه عن تسكين جلده إذا اقشعر من التعظيم للقاء القريب الذي يعدُّ له.

❊ ❊ ❊

(١) رواه مسلم (٨٣٢).

القبس الخامس: نزع حجاب الإصدار على الذنب:

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ أيصف اللَّه الواد بأنه مقدس ثم تطأه بنعليك... ؟! فإذ لم يرضَ اللَّه لِرْجل موسى حاجزاً ولا فاصلًا دون مباشرة جلده لأرض الواد المقدس، فكيف ترضى ببقاء حجاب على قلبك دون مماسة قلبك للمعاني الحقيقية العظمى للقاء اللَّه سبحانه؟!

ألا فلتسقط حجب الظلمات من باب أولى بيننا وبين اللَّه - سبحانه -... وهل من حجب أغلظ وأشد وأظلم من الذنوب؟!

إن أكثر الملبوسات التصاقاً بجلدنا هو النعل، ومع هذا أمر اللَّه سبحانه موسى عليه السلام أن يخلعه، لذا كان أعظم ما يجب أن نخلعه عن قلوبنا قبل إقدامنا على اللَّه هو إصرار قلوبنا على الذنوب... فعندها يصلح القلب لاستقبال أقباس الأنوار من اللَّه - سبحانه -... فأبشر بفضل اللَّه، ولا تحجب قلبك، فإن الإصرار حجاب، وإن اللَّه ناظر إلى القلب وما انعقد عليه كما قال المصطفى ﷺ: «إنّ اللَّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

نعم إن الوضوء يكفر.. وهكذا الخطوة إلى المسجد.. والجلوس في المسجد، وكذا الوقوف في الصلاة، والركوع والسجود.. وكل ما في الصلاة يكفر الذنوب...

لكن هل يدرك المغفرة من أبى المغفرة؟!

ومن يأباها إلا المصرُّ على ذنبه... فإن الحجاب نكتة سوداء ثم نكتة ثم نكتة وهكذا تزداد حتى يصبح القلب أسود مرباداً[1]... وهل ينتفع بالنور من هذا حاله ولونه؟! ألم يقل اللَّه سبحانه عن حَجْب المغفرة بالإصرار ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أيها المسلم: إياك أن تكون صلاتك عندك أرخص شيء، أو أن تبيعها بأرخص شيء... فإن في المسلمين من يبيع خشوعه في صلاته، وهو يبطله مقدماً... ذلك هو من كان ماء وضوئه للصلاة حرام، وثوب صلاته حرام، ونعله الذي يمشي به إلى المسجد حرام، ومركوبه الذي يركبه للجمعة

(١) المرباد: الذي في لونه ربدة، وهي لون بين السواد والغبرة كلون النعامة.
انظر النهاية في غريب الأثر، باب: الراء مع الباء.

والجماعة حرام، ولقمة إفطار صيامه حرام، ومن ثم فغذاء دم قلبه حرام، وقوة يديه ورجليه حرام. . . ذلك هو من كان مصدر رزقه حرام. . !

فأنى لهذا الرزق وهذا البدن أن يولِّد الخشوع. .؟ وأنى لشجرة الخشوع أن تنبت في هذا القلب؟ إذ كيف يمكن أن يجتمع الخشوع في الصلاة مع عدم خشية اللَّه في الاسترزاق؟! ومن كان هذا حاله فلن يُرفع له دعاء، ولن يجدَ الخشوع، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يا أيها الناس إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن اللَّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذِي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[1].

لقد تخلص موسى عليه السلام من نعليه وهما نعلاه فكانت طاعة وحكمة، ورعاية وحماية، وزيادة احتياط واستعداد، فكيف لا تخلع أيها المسلم الحرام الذي لازم حياتك وخالطك ظاهراً وباطناً. . . لأجل لقاء اللَّه.

(١) رواه مسلم (١٠١٥).

وحذار من أن يترك العبد المذنب صلاته حتى لو كان ذنوبه كبيرة وكثيرة. . . بدعوى خشية النفاق! فإنه لا ذنب بعد الشرك أعظم من ترك الصلاة. . .

وحذار أن تجمع على نفسك ذنبين. . . الإصرار على الذنب والإصرار على ترك الصلاة!

بل داوم على الصلاة مهما كان أمرك. . . ومهما كانت معصيتك. . . فحري بمن بقي مرابطاً في موطن الذكر والذاكرين أن يذكره اللَّه، ومن خرج منه ونسيه أن ينساه اللَّه في الدنيا والآخرة ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾.

وكم من مخلِّطٍ ما بين الكبائر والصلاة رجحت كفة صلاته في حياته وتاب بعد ذلك من كبائره قبل مماته، وعاد طاهراً كما وعد اللَّه ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وكان أثر صلاته أكبر من أثر كبائره. . . لأن الصلاة ذِكْر اللَّه واللَّه يقول: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾.

أيها المصلي: إنك في النهر الجاري فلا تترك عضواً منك لا يُغسل بماء المغفرة. .

* * *

القبس السادس: الكلام واللقاء معاً[١]:

ألم يقل اللَّه - تعالى -: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾؟ أليس هذا القرآن كلام اللَّه الذي ليس مثله كلام أبداً؟ بل كلام اللَّه في الصلاة، كلامٌ مع لقاء، وكلامه في غير الصلاة كلام كريم من غير لقاء... فاجمع قلبك حيث اجتمع الكلام وصاحب الكلام - سبحانه.

وانظر كيف يرى اللَّه موقع كلامه مع لقائه في قلبك، ألم يقل اللَّه سبحانه لنبيه: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]؟ هذا الكلام الذي ارتضاه اللَّه - سبحانه - لنبيه لتهجده.. وهل لنا نحن من حديثٍ مع ربنا حين نكون قياماً بين يديه إلا أن نسمع كلامه أو نقرأه... ؟! حينذاك تذكر أنك في هذا القيام خاصة إنما أنت في حال لقائه، وأن الكلام كلامه... والكلام سواء كنت تقوله أو تسمعه من إمامك فإنما النظر إلى وقع الكلام واللقاء معاً في قلبك... فاصنع ما بدا لك أنت صانع!

* * *

(١) قال ﷺ: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصقن قبل وجهه، فإن اللَّه عز وجل قبل وجهه إذا صلى» رواه النسائي (٧٢٤)، وصححه الألباني.

القبس السابع: إثارة الاشتياق للنظر:

أرأيت لو كانت رؤية اللَّه - سبحانه وتعالى - ممكنة لبشر في الدنيا... أكان حال أنسب لها من حالنا في صلاتنا؟

تأمل الإعداد... وسيتجلى لك الجواب: التطهر والطهارة، وبعده يأتيك نداؤه سبحانه، ثم يكون جوابك بالسعي إلى النور... ثم الخطوات، ثم الوقوف بين يديه - سبحانه - وكل مرحلة تطهر من الذنب وتزكي، وهناك يكون سماع كلامه - سبحانه - إذ نحن وقوف بين يديه على هذه الأرض... فماذا بقي لم يتحقق إلا النظر؟! بل ماذا بعد دوام النظر إلى موضع السجود حيث حدد النبي ﷺ.. ذلك «فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا، فإنّ اللَّه ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت»[1].

وهل غلب الاشتياق موسى عليه السلام وقد مرّ بالمراحل السابقة إلا لما سمع الكلام فانجذب للرؤية انجذاباً، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني.

وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أفلا تثير الصلاة وفيها اللقاء والكلام اشتياقاً للنظر إلى وجه ربنا سبحانه وتعالى في الآخرة...؟

ألا فليتجدد الاشتياق إلى النظر كلما تجدد اللقاء؟!

ألا ترى كيف سمى اللَّه - سبحانه - لقاء موسى الذي طلب فيه النظر ميقاتاً كما سمى موعدَ صلاتِنا ميقاتاً، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال لنا ربنا - سبحانه -: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

فإنّ ذكر اللَّه في خارج الصلاة ليس كذكره في الصلاة...

وإن كلام اللَّه في خارج الصلاة ليس ككلامه في الصلاة..

إنه الكلام والتكليم.. إنه الإلقاء والجواب، إنه القرب والتقريب.

هنا في الصلاة أنت تقول.. ويقول ربك لك، هكذا هي القسمة، ألم يقل في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» فأي مهابة

مثل المهابة في هذه القسمة؟!

وصلى اللَّه على رسوله محمد الذي أثار اشتياقنا لرؤية ربنا - سبحانه - أكثر، وداوانا في هذه الحياة بقوله: «اعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]، وهل تقترب الرؤيا حتى ليكاد ينكشف النظر إلى ربنا سبحانه ونحن على الأرض في حالٍ مثلما تقترب في حال صلاتنا؟

فالحمد للَّه أن فتح لنا هذا الأمل بهذا المقام الذي لا مقام مثله في التقريب ولا في الاقتراب...

ألا فليستعن باللَّه كل مصلٍّ لكل صلاة، وليجتهد وليجاهد حتى يبلغ مقام الإحسان في الصلاة... ليعود بما يهبه اللَّه آنذاك من الأقباس.

* * *

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ١٣٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

القبس الثامن: المشية إلى اللقاء:

تعال أيها القادم إلى بيت اللَّه... امش بخطىً ثابتة ووقار.. وإن كان قلبك نحو اللقاء المقدس قد أسرع وطار.. تحسس وقع خطواتك على الأرض واعتبرها خطوات قلبك إلى ربك... وسوف تتغير بهذا الفهم، وتمارس التغيير فعلياً بكل خطوة.. إنك تقترب لأنك ذاهب إلى ربك، ولا تزال في عروج ما دمت ذاهباً إلى ربك بهذه الخطوات، فاللَّه قادر أن يأتي لموسى بالنور حيث هو ويقذفه في قلبه من غير أن يريه النور في الواد المقدس... ومع هذا فلا ينبغي لهذه الحقيقة أن تدفعك إلى العجلة والإسراع نحو اللقاء.. فلا تضطرب ولا تستعجل، حتى لو ركع الإمام أو كاد ينتهي من الصلاة، اضبط النَفْس العجولة وإن طالبتك بالإسراع في المشي لإدراك الركعة أو نحوها، وإنَّ مجاهدتها في عدم الإسراع وتسكينها من توقير لقاء اللَّه وتعظيمه - سبحانه -، وهو من التركيز المُعِين أعظم إعانة على الخشوع في الصلاة، وحريٌّ بمن ضبط نَفْسه وهو يمشي إلى الصلاة أن يضبطها داخل الصلاة، وحري بمن سكنت نفسه للَّه وهو في خطوات طريقه إلى اللَّه أن تسكن نفسه ويخشع حين يكون بين

يدي اللَّه – سبحانه –. . ألم يقل النبي ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»(١).

والسر الحقيقي في ذلك هو أنك منذ أن خرجت من بيتك إلى بيته – سبحانه – وأنت في عينه، **فليكن قلبك أكثر ما يكون مراقبة للَّه سبحانه إذ أنت في طريقك إليه سبحانه**. . . أتدري لماذا؟ لأنك في صلاة، واللَّه يحسبها لك صلاة. . . طالت المسافة أم قصرت، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «إذا توضّأ أحدكم في بيته ثمّ أتى المسجد كان في صلاة حتّى يرجع فلا يقل هكذا: وشبّك بين أصابعه»(٢).

يخطئ من يؤجل مراقبة اللَّه حتى يدخل في الصلاة. . . إذ كيف لا ينظر ربك – سبحانه – إليك بعين الرضا والخصوصية، وقد جئت إليه حين شرد أكثر الخلق عنه، وسمعت نداءه فأجبت بينما أعرض آخرون عن

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٦١٠)، ومسلم (٦٠٢).
(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤٣٩)، وصححه الأعظمي والألباني، انظر صحيح الترغيب (٢٩٣).

ندائه. . . كيف لا ينظر إليك في طريق صلاتك كما في صلاتك وهو يقول لنبيه ﷺ منذ غُدوِّه من أهله قبل أن يِصلَ الى الميدان ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

فلا تفوتنك عبادة القلب هذه أثناء خطواتك، فمشي القلب الآن مشي إلى اللَّه. . والقلب يعرف ذلك، ولما كان المشي إلى الصلاة صلاة طلب فيه السكينة والوقار. . . ولذا فإنك إذا وصلت إلى صف الصلاة فعليك أن تدخل معهم في الصلاة على أي حالٍ كانوا؛ قائمين أو راكعين أو ساجدين ولا يشترط أن يكونوا قائمين. . . فهنا تُشْرع الفورية، وتحلو سرعة الالتحاق لأنك وصلت إلى ما سعيت إليه فلا تتوقف، ولأنك بلغت ما كنت تريد فباشر الدخول في اللقاء الفعلي، وكلُ ما زاد مما لا يُحْسب لك ركعة إذا التحقت بهم إنما هو زيادة في التقرب بل الاقتراب، وفضل وتَطَوُّع؛ ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ١٨٤].

❊ ❊ ❊

القبس التاسع: انعدام الشكوى عند اللقاء:

ادخل... وليغلب الخشوع الذي اشتعل في قلبك من أثر الاقتراب كل العوارض في الطريق إلى المسجد؛ الظلمة أو الضوضاء... الحر والرطوبة أو البرد القارس... فإذا انشغل القلب بالحقيقة... وعرف ما جاء لأجله... لم يأبه بكونه حافياً وإن كان في وادٍ صخري... فلم يسمع الخلق من ذلك الحافي عليه السلام في الواد المقدس عند اللقاء شكوى صخر أو حرٍ أو برد، أو حفرة، أو ظلمة أو متاهة إذ هو في الواد المقدس... بينما كان خروجه أول ما خرج لأجل البرد والمتاهة وعند الوادي المقدس خلع النعلين ودخل حافياً بجلدة رجليه.

* * *

القبس العاشر: إدراك عظمة النعم بهذا اللقاء:

قد أدرك موسى عليه السلام أيّ نعم أدركته حين لاقى ربه - سبحانه - فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٥] فأي نعمٍ تغمرنا منذ أن نقوم إلى ربنا.. ماشين إليه... حتى ندخل بيته... نريده هو سبحانه وحده ولا نريد سواه، فأي عبد لا يستشعر هذا الفضل بهذه الخصوصية؟!

بوصولك المسجد تكون قد تحققت أن اللَّه سبحانه قد ناداك-أنت- فعلا مع ما في النداء من تعميم للجميع، وأن اللَّه قد اختارك للقائه فعلًا.. وذلك بشاهد وصولك؟! فهل تملك إلا أن تتفجر حمداً للَّه إذ كنت مع هذا الوفد الواصلين...؟

إن تفجر قلبك حمداً للَّه، يفيض على بدنك خشوعاً وإجلالًا للَّه، حمداً يجري على لسانك... .. فتدخل بيته حامداً شاكراً قائلًا عند دخوله المسجد، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلّم على النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وليقل: اللَّهمّ افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج، فليسلّم على النّبيّ صلى الله عليه وسلم وليقل: اللَّهمّ أجرني

من الشّيطان الرّجيم»[١].

إن للمجيء إلى بيت اللَّه خصوصية عند اللَّه... أليس هو مجيء إلى بيته سبحانه.. كما للمجيء إلى بيت أي كريم خصوصية لا تتحقق بلقاء ذاك الكريم في أي مكان غير بيته... إنها الضيافة..! ودونك ضيافة اللَّه - سبحانه وتعالى - لعبده فالنبي ﷺ يقول: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعدّ اللَّه له في الجنة نزلًا كلما غدا أو راح»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤٥٢)، قال الألباني: إسناده جيد على شرط مسلم.
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٦٩).

القبس الحادي عشر: ذهاب المخاوف:

إذا خالطتك الهموم والأحزان أو طاردتك الأعادي والأحزاب، ودخلتْ وراءك بيت اللَّه... بل تحولت عصاك التي في يدك إلى أفعى كأنها جان..! فاسكن واطمئن، واخشع ولا تخف، وتقدم ولا تلتفت لشيء أبداً... أتدري لماذا؟ لأنك أنت الآن لدى اللَّه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] وقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر هرع إلى الصلاة.

في هذا اللقاء يُغلبُ الهمُّ وسببه... ويذهب الروع ورعبه... وتتحول كل المخاوف إلى برد وسلام بلا حرق ولا سم ولا عدوان... وتأخذ معك الأمان والضمان... وتتقدم نحو فرعون كل زمان ومعك اللَّه سبحانه وهو السلام الضمان ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

* * *

القبس الثاني عشر: لذة اللقائين:

سار موسى في ظلمة الليل نحو النار... نور بالليل بلا دخان ولا احتراق... وهكذا أخذت صلاتنا من رحلة موسى النور دون الظلمة، وأخذت دفءِ الإيمان وسكينته مع توقده وحيويته وحركته، فجمع اللَّه سبحانه لنا في لقائنا به نور الإيمان ودفءِ اليقين... فقم بالليل من دثارك فقد آنست نوراً، فقد فارق موسى عليه السلام أهله بالليل وقال لهم ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، قم من فورك فواللَّه لن ترجع إلى فراشك وأهلك كما تركتهم، فأين موسى عليه السلام قبل ذهابه، من موسى بعد رجوعه عليه السلام؟ فإذا وجدت ذلك فأعد وكرر... فإنَّ من تلذذ بشيء عاد إليه، ومن وجد في سوقٍ ربحاً واصل الغُدُوَّ إليه، أما إذا آنس القلب نوراً لم يملك القلب إلا الانجذاب إليه.

أرأيت كيف قال موسى عليه السلام لأهله ﴿ءَانَسۡتُ﴾ وفي هذا ما فيه من معنى التلذذ والمؤانسة: فالإيناس خلاف الإيحاش، والعرب تقول: آنس من حمّى، يريدون أنها لا تكاد تفارق العليل فكأنها آنسته[1].

(١) لسان العرب (١/ ٢٤٣).

فإذا آنس موسى ذاك النور بمجرد الرؤية من موقعه، فكيف بلغ به الحال عندما دخل واديها المقدس؟

أيها المصلي: إن عليك أن تقدر عظمة ما أنت فيه من نور، فكيف إذا أصبح النور في قلبك وفي بصرك وفي سمعك وعن يمينك وعن شمالك ومن فوقك... كما طلبت في دعاء المشي إلى المسجد؟!.

إن آنست ذاك النور ولو من بعيد، ورأيت شاراته بإقبال قلبك، واشتداد رياح همتك، وتفتح المعاني عليك... فلا تلتزم بما كنت ناوياً عليه من طول للصلاة وقصر، أو عدد أو نحو ذلك ما دام الشارع قد فتح لك... فهذه الهبات لا تأتي في كل وقت، وإن أتت فلا تأتي بالغيث في كل وقت...

فكم من قائم في خلوته ينوي القيام بركعتين فيجدهما يفتحان على طريق عجيب لم تره - من قبل - عينه ولم تسمع به أذنه ولم يخطر على قلبه... فيذهب مع اللَّه ويذهب الليل كله مع القرآن كله وهو في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

أترى موسى عليه السلام وقد سلك طريقاً نحو النار التي رآها كان يطمع

بأكثر من سؤال يعرف به طريقه أو قبساً يصطلي به لأهله ويعود بعدها مسرعاً لزوجه المستوحشة في تلك الوحدة والظلمة. . . لكنه ما إن ذهب ودخل الواد المقدس حتى عرف ما لم يكن يعرف. . . فأطال وأطال؛ فاللَّه سبحانه يقول له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ فيجيب مسهباً مفصلاً ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

وحين رفع دعاءه إلى ربه سبحانه في حاله ذاك أطال وقال شارحاً ومعللًا، وشاكراً ومتذللًا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٥ - ٣٥].

وفي الشعراء قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾.

يأنس القلب في آية أو سورة مرة. . . فلا يستطيع مجاوزتها حتى يذهب من الوقت ما لم يحسب له حساباً، وربما ذهبت ليلته كلها وهو في هذا الحال.

فلقد شهدت عائشة رضي الله عنها بذلك وقالت: «قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلا سمع رجلا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالها، فقال رسول اللَّه ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»(٢).

إنه لا يفوّت هذه الفرصة إذا حضرت - من غير عذر - إلا محروم...!

لا تقل عندي برنامج غداً... أهذه تخرق البرنامج... إنه نور ليس مثله نور، فخذ لقلبك منه واملأ شعابه وسويداءه... فمن يضمن لك مرورك به بعد الليلة؟!

هل سمعت أن النبي ﷺ كان يحافظ على صلاة النافلة ما بين المغرب والعشاء؟! لكن حذيفة رضي الله عنه قال: «أتيت النبي ﷺ فصليت معه المغرب

(١) رواه الترمذي(٤٤٨)، وصححه إسناده الألباني.
(٢) رواه البخاري (٦٦٤٣).

فصلى إلى العشاء»[١].

وبهذا أصبحت هنا ستّة أحياناً، ولربما جاءت هذه الهبة الإيمانية الضحى أو بعد الظهر أو قبله أو في أي وقت تشرع فيه الصلاة... فانطلق ولا تترد... ولا تنتظر ولا تتوقف... فإنك مع اللَّه.

❊ ❊ ❊

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٣٧٩)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٥٩٠).

القبس الثالث عشر: بركة اللقاء على الحياة:

شاء اللَّه أن يأتي موسى عليه السلام ومعه عصاه.. فيلاقي اللَّه وهي بيده، فقد كانت عصاه بالنسبة له عنوان الرزق والقوة.. والإعانة والصحبة... فبوركت وأصبحت العصا بهذا اللقاء المباركة المنقذة، وغدت عنوان التحديات، ومفجرة المعجزات والخيرات، وشق البحار، وسر الانتصارات... فاعرف أيها المصلي مع من أنت في هذا اللقاء، فانهل من بركات لقائك من حيث لا تحتسب، فأين ما عدده موسى عليه السلام من مآربه التي ذكرها ومآربه الأخرى... مما أجراه اللَّه سبحانه في لقائه على عصاه له ولأمته إلى آخر حياته؟

فإياك أن تبقى أسير العادات والنظرات، وتيأس من تحوُّلِ حالك، أو تظن أنه لا يمكن أن يكون أحسن مما عندك، وتقبع في قيود قناعاتك... إن التغيير إن لم يكن من صلاتك فمن أين يكون... لأنها لقاء اللَّه - تعالى - ... هنا جاءت البركة في العصا بما لم يكن موسى يحتسب.. فأصحبت شيئاً آخر، فأين ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾... من أن تتوكأ عليها الرسالة كأعظم معجزة من معجزاتها وآية دالة عليها؟! وأين ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾... من

أن يهش بها موسى الجبابرة والفراعنة والسحرة؟! وأين المآرب الأخرى. . . من تفجير الماء لأمة بني إسرائيل وشق البحار للنجاة، وما إلى ذلك؟!

* * *

القبس الرابع عشر: الإكثار بعد اللقاء من الأذكار:

يخطئ البعض - إذا ما جف خشوعه وجفلت خشيته أحياناً - فيفتر، ويقلل من صلاة التنفل لقلة الإحساس بأثرها في القلب... وإنما هذه حيلة شيطانية تضاعف القسوة وتطيل فترة الفتور، وتمد أمد العودة إلى الخشوع والخشية.

فمن أغلق دونه الباب زاد طرقه ولم يبعد عن الباب، ولم يستمع لنصيحة العدو بترك الطرق والسير معه!

إن جو الصلاة والإصرار على الإكثار منها إنما هو كزيادة قَدْح الزناد، أو فرك المرخ والعفار لإيقاد النار... ولذا قال موسى عليه السلام: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣- ٣٤]. فالكثرة قربة، والكثرة علاج كذلك.

فعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: «كنت أبيت مع رسول اللَّه ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سل، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود»[1].

(١) رواه مسلم (٢٢٦).

وقد قال ﷺ لثوبان: «عليك بكثرة السجود للَّه، فإنك لا تسجد للَّه سجدة، إلا رفعك اللَّه بها درجة وحط عنك بها خطيئة»[١].

ولابد أن يعلم من قسا قلبه وذهب الإحساس بالخشوع من عنده أن الخشوع أمر ينزله اللَّه في القلب كما هو شأن السكينة على المجاهدين أو الخائفين... وأن هذا الإنزال لا قدرة لأحد على تحصيله... إنما يُطلب ببذل أسبابه، وهذا الكتاب وغيره لا يعد كونه سبباً يقرأه هذا فيأتيه الخشوع وربما لا يأتيه... ليعلم الجميع أن الأمر بيد اللَّه وحده، وأن الذي علينا هو أن نخلص للَّه - سبحانه - في الدعاء، ونصدقه الرجاء والطلب.

* * *

(١) رواه مسلم (٢٢٥).

القبس الخامس عشر: كلاهما جزء من الحياة:

أمر اللَّه موسى عليه السلام أن يخلع نعليه عند دخول الواد المقدس ولم يأمره عند ذاك أن يلقي عصاه ويأتيه بغير عصا، هكذا هي الصلاة لا تناقض الاسترزاق وأسبابه، ولا تأمر بالبراءة من الدنيا، بل سأله ربه سبحانه وتعالى عن عصاه - وهو أعلم - فأجاب: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] فلم يكن للعصا أي استخدام عبادي أو قربة ظاهرة، إنما استخدامها للحياة، والصلاة جزء من هذه الحياة والمسلم عضو حي فيها، لذا فالمسلم في صلاته يدعو اللَّه بالرزق، ويدعو بالعافية في الدين والدنيا والآخرة ونحو ذلك... فبالصلاة تبارك الحياة والرزق والقوة والعافية وكل شيء... هكذا كانت حياة موسى عليه السلام مباركة أعظم البركة بعد اللقاء، وهكذا تصنع الحياة المباركة بعد لقاء العبد ربه في الصلاة، بشرط أن لا يتعلق القلب بالحياة وإنما يتعلق بالصلاة بينما النعل قاصرٌ على الشخص ذاته. وبخلعه لا ينقص الإنسان شيء، ولا ينزل مرتبة ولا تنكشف له عورة.

* * *

القبس السادس عشر: كلا اللقاءين تلبية للنداء:

أيها المقبل على اللَّه تأمل: هل جاء موسى عليه السلام إلى ربه - سبحانه - إلا بعدما ناداه اللَّه؟ أولم يشرع اللَّه - سبحانه - لصلاتنا الأذان عَلَناً عاليا نَدِيّاً.. بل يسميه اللَّه في شرعنا بنفس الاسم: «النداء».. فقال في حق موسى هناك: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ وقال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] وقال لنا نحن أمة محمد ﷺ في الصلاة: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

أقبل أيها القلب فقد نودي صاحبك كما نودي موسى عليه السلام...

أقبل- وقد سمعت النداء - ولا تتوقف حتى تقف بين يدي اللَّه حيث رُفِعَ نداء اللَّه... هنا الواد المقدس بل هنا المكان الأقدس... هنا بيت اللَّه...

فلتكن أيها القادم اليوم عند اللَّه أحب، لأنك أنت الآن في المكان الأحب إلى اللَّه - سبحانه - من جميع أرضه.

تعال وتحبب إلى ربك فثمة الطريق الأرحب للحب.. ففي الحديث

القدسي: «وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنّه، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[١].

إن الفرص التي تأتي للعبد لِيُرِيَ اللَّهَ من أمره تميزاً هي التي تعرج به عند الله عروجاً لا يعلمه إلا اللَّه. . . حين يُرِي العبدُ ربه سبحانه أنه يؤثره على محبوبٍ حاضر، أو يتجاوز لأجله سبحانه تعباً وإرهاقاً آصر، أو نوماً غامر، وفراشاً دافئ خادر. . . إنها لحظة يعجز التعبير البشري أن يصف قيمتها عند اللَّه أو حب اللَّه لها. . . أو يبين كيف يتلقاها اللَّه سبحانه جلّ في علاه. . . فدونك ما قاله الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ: عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يحبهم اللَّه ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه للَّه عَزَّ وجَل، فإما أن يقتل، وإما أن ينصره اللَّه عز وجل ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صبر لي بنفسه؟ والذي له

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

امرأة حسنة، وفراش لين حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يذر شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد، والذي إذا كان في سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر في ضراء وسراء»[١].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «عجب ربنا من رجلين: رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى الصلاة، فيقول اللَّه جل وعلا: انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل اللَّه، فانهزم الناس وعلم ما عليه في الانهزام وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، فيقول اللَّه لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رجاء فيما عندي وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه»[٢].

لا تقل: ألهذه الدرجة... ولكن قل: أهكذا تفوتنا الفرص؟!

سبحانه من لا تأخذه سِنة ولا نوم، يطلع إلى عباده جيمعاً فإذا بذاك العبد يحدِّث نفسه بهذا الحديث ويتجاذبه المضجع والتعب، والشهوة

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٦٢٩).
(٢) رواه ابن حبان (٢٥٥٧)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

والأفكار. . . وربه يعلم ما يدور في نفسه ويرى عبده في ذاك الحال، فيقرر أن غير اللَّه لن يُختار. . . فكيف ترى جزاء هذا الإقبال في هذا الحال عند ربك سبحانه؟!

فعن عقبة بن عامر ﷺ قال سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «رجل من أمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور، وعليه عقد، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، فإذا وضَّأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضَّأ رجليه انحلت عقدة، فيقول اللَّه جل وعلا للذي وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه ليسألني، ما سألني عبدي هذا فهو له، ما سألني عبدي هذا فهو له»(١).

أعد قراءة الحديث مراراً وتكراراً. . . فالجزاء فوق كل تصور، نعم إن اللَّه مطلع على عباده في كل وقت لكنه خص هذا الحال بقوله لحبيبه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩].

(١) رواه ابن حبان (٢٥٥٥)، قال الألباني: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٦٣١).

القبس السابع عشر: لا التفاتة في اللقائين:

أرأيت الْتفاتةً ذهبت من موسى عليه السلام إلى أي شيء بعدما غادر أهله مقبلًا نحو الشجرة المباركة... ؟! أَذَكَرَ أهله وقد قَدِمَ لأجلهم... ؟! وهل ذكر أخاه الغائب إلا ليذكرا اللَّه كثيراً ويشكرا اللَّه كثيراً - عليهما السلام -؟!.

أم رأيت محمداً ﷺ ذكر زوجه الحبيبة رضي الله عنها وهي نائمة بين يديه وهو قائم في ليله يناجي ربه - سبحانه -؟!

أيها المصلي: إن حق لقائك مع اللَّه أن تفيض بركته على مساحة حياتك كلها، لا أن تطغى هموم حياتك حتى على مساحة صلاتك فتغرقها!

هل في حياتك أغلى من لحظة تلاقي فيها اللَّه... فكيف تهدر لحظاتها الأغلى بما ليس له ثقل عند اللَّه؟ كيف تهدر خشوعها بذهاب الفكر عنها بأي مقابل... والدنيا كلها لا تساوي عند اللَّه جناح بعوضة... ؟!

* * *

القبس الثامن عشر: حسن الظن في اللقائين:

تعال إلى الصلاة وأنت في غاية إحسان الظن باللَّه تعالى.. فاللَّه عند ظن عبده به.

أقبل على اللَّه متفائلًا بلقائه... فواللَّه ما أقبلتَ إلا بأمره وفضله ودعوته إليك.. أفتراه يدعوك ليردك؟! سبحانه.

لقد رأى موسى عليه السلام ناراً بعيدةً فانجذب.. فطمع أن يجد فيها دفئاً لجلده أو قبساً لدربه... فكان اللَّه عند ظنه وأكثر، فلقد عاد من لقاء ربه بمنزلة النبوة والرسالة، وأصبح وصْفه الكليم عليه السلام.

أيها المصلي: إن اللَّه هو القائل - سبحانه - عن معاشر المقبلين إليه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وأعظم المكافأة أن يجمع اللَّه لك قلبك في هذا اللقاء... ويملأه خشوعاً، فلقد أَلِف الناس الشرود بين يدي اللَّه، وأقبل أكثرهم يائسين من الخشوع فكان الأمر كما ظنوا.. فلنقتلع هذا الظن من جذوره.. ولنحسن الظن بربنا - سبحانه -، أفتترك تجارتك وأهلك ولهوك لوجه اللَّه الكريم ولا يكرمك..؟! حاشاه سبحانه.

القبس التاسع عشر: لا تَذَكُّر لشيء خارج اللقاء:

قام موسى إلى النار ولعلَّهُ ظن أن أُمةً من الناس على النار يصطلون. . . كما رأى حين جاء مَدْين أمة من الناس يسقون، لكنه ما رأى في هذا الواد العظيم أحداً من العالمين. . . إنما هو رب العالمين. . . فما ذكر حتى رفيقة الدرب. . ولا الظلمة والبرد، فلا تشغلنك جموع العالمين مهما كثرت من حولك وأنت تلاقي رب العالمين. . . ولا يذهبن قلبك مهما اتسع المكان أو استوحش أو ازدان. . فائنس في صلاتك. . . فإنما تلاقي رب العالمين.

فعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: اعتكف رسول اللَّه ﷺ في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة، فكشف السّتر، وقال: ألا إنّ كلّكم مناج ربّه، فلا يؤذين بعضكم بعضاً، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة أو قال: «في الصّلاة»[1].

ولا تشغلنك جموع العالمين من حولك ولو كثروا. . فالحقيقة أنك لوحدك تكلم رب العالمين كما سيكلمك لوحدك يوم الدين، فعن عديّ ابن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه

(١) رواه أبو داود (١٣٣٢) وصححه الألباني.

اللَّه يوم القيامة، ليس بين اللَّه وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة»[١].

فأحسن لقاء اللَّه هنا يحسن اللَّه لقاءك هناك ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

تذكر جيداً أن جهد إبليس نعوذ باللَّه منه هو تذكير المصلين بخارج الصلاة، ألم يقل المصطفى ﷺ: «إذا نوديَ للصلاةِ، أدبرَ الشيطانُ وله ضُراطٌ، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضيَ النداءُ أقبل، حتى إذا ثُوِّبَ بالصلاةِ أدبرَّ، حتى إذا قُضِيَ التَّثويبُ اقبلَ، حتى يخطرَ بين المرءِ ونفسه يقول: اذكُرْ كذا، اذكُرْ كذا لما لم يكن يَذكُرُ حتى يظلَّ الرجلُ لا يدري كم صلى»[٢].

فتلك هي غنيمته من صلاتك... والصراع معه علىٰ احتلال مساحة من الصلاة، فكن نعم الحارس الأمين... واستغن باللَّه رب العالمين.

* * *

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩).

صناعة جو الصلاة الخاشعة

أقباس نصطليها من أجواء الواد المقدس..

فمن أحاط به الجو: عاشه، وتنفسه، وتخللّه وتجللّه...

القبس الأول[١]: استحضار الساعة بين عيني المصلي

ألا يا أيها المقيم صلاته: أتريد سر اجتذاب الخشوع ولوأدبر، وصونه وعلاج هزاله إذا القلب قسي أو فرّ. . . ؟

لقد ذكّر اللّه سبحانه موسى عليه السلام بالساعة - أي: يوم القيامة - حين أمره بإقام الصلاة. . . . فقال له حينما لاقاه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٤- ١٦] فاربط الصلاة بالساعة تحفظ صلاتك من آفات هروب القلب، أو استكانة النفس لخشوع سابق، أو أمل لاحق. . .

إن ذكر الساعة هو المعيد للقلب العنيد، الموقظ الذي يقول للمصلي: لا تركن. . . فما هذا اللقاء إلا عدة لذاك اللقاء.

---

(١) كل قبس من هذه الأقباس المذكورة في هذا الموضوع لها ارتباط واضح في قصة موسى عليه السلام وستجد الإشارة لذاك الرابط في ثنايا كل موضوع دون استثناء. . .
لكن غاية كل قبس من هذه الأقباس خاصة هو صناعة الجو الصالح للخشوع والذي ينشأ فيه الخشوع، وينمو فيه، ويشتد ويثمر.

وإنها لنسبة مقررة ونتيجة محددة؛ فكلما قوي اليقين بذكر الآخرة واقترب لقاء اللَّه من عيني بصيرتك... كلما ازداد خشوع صلاتك ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ - ٤٦].

خذ هذه الذكرى كيف شئت ولكن اعلم: أنك إنما تعد صلاتك لنجاتك..

لقد ذكر النبي ﷺ أن مقدار التخفيف لخمسين ألف سنة قياماً عند الحشر على المؤمنين إنما يكون بمقدار «ما بين الظهر والعصر»[(١)]، ألا ما أعظم الرابط بين ما يجده الخاشعون من خفة الصلاة بالخشوع وبين تقدير التخفيف عليهم هناك من خمسين ألف سنة إلى ما بين صلاتي الظهر والعصر.. فيا للصلاة ما أعظم حضورها في مواقف القيامة... ؟!

فالسؤال الأول في الحساب عن الصلاة «فإن صلحت صلح سائر العمل، وإن فسدت فسد سائرالعمل»[(٢)].

ورسول اللَّه ﷺ يعرف المؤمنين غراً محجلين من آثار الوضوء، والنار

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يوم القيامة كقدر ما بين الظهر والعصر» رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٨٤) وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٤٥٦).
(٢) وقد مر معنا الحديث من قبل.

تأكل كل شئ إلا موضع السجود من المصلين، وأول ما يذكره اللَّه عن أهل النعيم هو هذه الركعات ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٨].

وإن من أبى السجود في الدنيا مختاراً أُمر بالسجود في أرض المحشر مرغماً فلم يستطع . . . ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢ - ٤٣].

إذاً فالصلاة حاضرة في كل مواقف المحشر والجنه والنار. . . وهذا كافٍ في معرفة أهمية الخشوع في كل أجزاء الصلاة لكل أجزاء المحشر.

وفوق هذا فإن من تعلقت قلوبهم بالمساجد لهم مكان مخصوص في ظل عرش اللَّه - سبحانه - في المحشر.

ولن تكون صورة الحشر والنشر والحساب والميزان ولقاء اللَّه هنا أوضح للعبد في حال مثل وضوحها له في الصلاة.

كل صلاة فرصة جديدة تهوِّن بها عن نفسك المسكينة يوم تكون في عرصات القيامة الطويلة الشديدة العظيمة. . .

ورحم الله ابن القيم إذ بين العلاقة فيقول: «للعبد بين يدي اللَّه موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه، فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوقفه حقه، شدد عليه ذلك الموقف. قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾»[1] اهـ.

* * *

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٢٢١، ٢٢٢).

القبس الثاني: ربط الصلاة بظرفها يُنوِّع الخشوع ويجدده..

ليس لشجرة الخشوع ثمرة واحدة.. بل هي أشكال وألوان كسدرة المنتهى التي لما شرعت الصلاة عرج بالنبي ﷺ إليها... فإن النبي ﷺ لم يستطع وصفها بل أخبر أنه لا أحد يقدر على وصفها، فلقد وصف المصطفى ﷺ سدرة المنتهى والتي رفع النبي ﷺ إلى أعلاها بعدما فرضت عليه الصلاة فقال النبي ﷺ: «ففرض اللَّه على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال: ما فرض اللَّه لك على أمتك؟ قلت: فرض اللَّه خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت ربي فقال: هن خمس وهن خمسون، لا يبدل القول لي، فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك، قلت: قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، ونبقها مثل قلال هجر، وورقها كآذان الفيلة، تكاد الورقة تغطي هذه الأمة، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[(١)].

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أسري برسول اللَّه ﷺ انتهى

(١) رواه ابن حبان (٧٤٠٦) وصححه الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤١٩٩).

به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يبهط به من فوقها، فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول اللَّه ﷺ ثلاثاً، أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك باللَّه من أمته شيئاً المقحمات(١)(٢).

(١) معناه: من مات من هذه الأمة غير مشرك باللَّه غفر له المقحمات وهي الذنوب العظام (الكبائر) التي تهلك أصحابها، والحديث رواه مسلم (١٧٣).

(٢) قد أحسن ابن حجر في جمعه الروايات وتأليفه بينها كعادته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:
«قلت: ولا يعارض قوله إنها في السادسة ما دلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة، لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، وتقدم في حديث أبي ذر أول الصلاة «فغشيها ألوان لا أدري ما هي»، وبقية حديث ابن مسعود المذكور: «قال اللَّه تعالى ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال: فراش من ذهب» كذا فسر المبهم في قوله: ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ بالفراش. ووقع في رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس «جراد من ذهب» قال البيضاوي: «وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب لصفاء لونها وإضاءتها في نفسها».
ويجوز أن يكون من الذهب حقيقة ويخلق فيه الطيران، والقدرة صالحة لذلك. وفي حديث أبي سعيد وابن عباس «يغشاها الملائكة»، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي «على كل ورقة منها ملك»، ووقع في رواية ثابت عن أنس عند مسلم: «فلما غشيها =

وبما أن المصلي بشر يتأثر بالظرف الذي من حوله، وينطبع أثر ما حوله في حياته وفِكره، فلا بد أن يتنوع خشوعه حسب وقت صلاته وظرفها. . . يغترف فكرة خشوعه من ظرفه المحيط به، ويصبغ خشوعه من زمان صلاته وموقع أدائها، ومن النادر أن يغيب المصلي عن كل ما حوله بالكلية فتستوي عنده صلاة الصيف والشتاء، وخشوع صلاته في المطر مع خشوع صلاته في الغبار، وخشوع الظلال والأنهار مع خشوعه وهو يصلي في البراري والقفار. . وخشوعه في صلاته في الطائرة مع خشوعه في سفينته وهى تمخر عباب البحار الهادرة؟

لا تستغربن هذه الفكرة فيفوتك تنوع مذاق خشوع ربما لم تطعمه من قبل. . . ومن يدري؛ فلعل البعض لم يتذوق من الخشوع إلا طعماً واحداً!

إن سر ذلك هو أن لكل ما خلق اللَّه شهادةُ عبوديةٍ للَّه سبحانه تنطبع على قلب العبد البصير بما حوله، وشهادة من ظرفه الذي هو فيه. . . لذا فلابد أن يتأثر بها المصلي وتتأثر بها صلاته ويرفعها إلى اللَّه من حاله

= من أمر اللَّه ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق اللَّه يستطيع أن ينعتها من حسنها»» اهـ. انظر: فتح الباري(٧/ ٣١٣).

ذاك . . . كأنه جزء من ذلك الحال، أو جزء من ذلك المكان، إن ما يقدمه النهار للقلب وأنت تصلي فيه غير ما يقدمه لك الليل!.

وما يقدمه الواقع للراعي وهو يؤذن ويقيم ويصلي في شعب من شعاب الجبال غير ما تقدمه للمصلي صفوف الخَمِيسَيْن[١] إذا اصطفا للقتال، وما تقدمه الرعود القاصفة من فوقك وأنت تصلي غير ما تقدمه صلاة وسط صحراء صائفة . . .

كلٌ في زمانه وموقعه، ولذا أسمعت الكائنات البحرية شهادة حالها ليونس عليه السلام فرفع من ظرفه ذاك دعاء الشدائد والضرورات، قال ابن كثير: «قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره فعند ذاك وهنالك قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]»[٢].

وعن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «دعوة ذي النّون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من

(١) الجيشان.
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٦٧).

الظّالمين، فإنّه لم يدع بها مسلم في شيء قطّ إلّا استجاب اللّه له بها»[١].

إنك بهذه الطريقة - بإذن اللّه - تستطيع أن تربط الخشوع برباط ثابت... وهل أثبت من رباط الزمان والمكان.

وإلا؛ فهل ترى اللّه سبحانه وقّت للصلوات خمس مواقيت مختلفة... تطوف الليل والنهار إلا لحكمةٍ بالغة، ومن ذلك تنوُّع الذكر الصاعد إليه - سبحانه - مع تنوع الأوقات ليشمل الحياة والحالات.

ألم يقل سبحانه في القرآن: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨].

لا تنتظر قراءة الإمام في صلاة جهرية بآيات الآخرة... فما وجد الخاشعون مثل قراءتهم في صلاة الظهر وكذا الصلاة الوسطى - صلاة العصر -... وخصوصاً إذا نوَّعوا الآيات والسور التي بعد الفاتحة، ولم تحبسهم العادة على سور معينة... إنك ستقرأها بنفسك وبمفردك وسوف ترى كيف تقترب من اللّه - سبحانه وتعالى - وتعبده كأنك تراه - سبحانه -، وتقترب الدار الآخرة منك كأنك تراها.. بل كأنك في صلاة الظهر تحس

(١) صحيح الترمذي للألباني (٣٥٠٥).

لهيبها من خلال لهيب حرّ الظهيرة الشديد الذي هو نَفَسُها حتى قال المصطفى ﷺ: «إذا اشتدّ الحرّ فأبردوا عن الصّلاة، فإنّ شدّة الحرّ من فيح جهنّم»[١]، فشدة هذا الحر توقظ الإحساس لخطورة جهنم واقترابها.

وتفعل في قلبك آيات القرآن في هذه الصلوات الأفاعيل حين يصف اللَّه - سبحانه وتعالى - الدار الآخرة بكلامه كأنها حاضرة، وقد كان من هديه ﷺ أن يطيل في صلاة الظهر كما في حديث أبي قتادة الأنصاريّ رضي الله عنه قال: «كان النّبيّ ﷺ يقرأ في الرّكعتين الأوليين من صلاة الظّهر بفاتحة الكتاب وسورتين، يطوّل في الأولى ويقصّر في الثّانية، ويسمع الآية أحياناً، وكان يقرأ في العصر بفاتحة الكتاب وسورتين، وكان يطوّل في الرّكعة الأولى في صلاة الصّبح ويقصّر في الثّانية»[٢].

واللَّه إن لصلاة الظهر طعم خشوع لا يتكرر في غيرها... وهي التي تفوت الكثيرين مع أنها فاتحة الصلوات عند تشريعها في الأرض.

هكذا يؤثر التوقيت في الخشوع ويثريه، وإلا فلم تراه سبحانه حدّد وقت لقاء موسى عليه السلام وقدره ليلًا.. إلا لحكمة بالغة...

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٥١٠)، ومسلم (٦١٥).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٧٢٥)، ومسلم (٤٥١).

كم قرأنا من محبة بعض الصالحين صلاة الليل الشاتية، وآخرون الصائفة وهكذا، والعادة أن لكلٍ طعمها الذي لا يماثله طعم.

لا، لن تشبه صلاة صلاة... ولم تجعل كلها في وقت واحد... لذا فلن يشبه خشوعٌ خشوع من كل وجه.. فخشوع من وقفوا يصلون على ميتهم غير خشوع من خرجوا لصلاة العيد...

وخشوع من خرجوا لصلاة الاستسقاء غير خشوع من خرجوا لصلاة الكسوف... فاصنع من حالاتك حالات مع اللَّه مباشرة... وهل تكون المباشرة إلا في الصلاة؟

وكما يؤثر الظرف المحيط بالمصلي على خشوعه... فإن ظرفاً آخر ربما أذهب خشوعه.

ألا ما أعظم إفساد لهو القلب لإحساس القلب بالساعة القريبة...

ألا ما أبعد الخشوع عن قلوب مصلين قاموا عن لعبهم ولهوهم مسرعين ولصلاتهم خاطفين... فأنى لهم أن يخشعوا وقد خُطفت قلوبهم، فآثار ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تطير الإحساس بها ظروف اللعب العاتية! وإن كانوا خيراً وأبرك ممن لم يقوموا لصلاتهم ولم يستجيبوا لربهم.

* * *

القبس الثالث: فجر خشوعك من حالتك الطارئة

لا تُفوِّت فرصة العروج في غمرات الأحداث وثقلها. . . فالحدث مهما ثقل طارئ وسوف يمر. . . وهل الحياة إلا مجموعة من الأحداث. . . وهل بعد ذهاب العمر من حدث؟وهل حدث مثل مواجهة فرعون. . . لقد استغله موسى عليه السلام وطلب من ربه - سبحانه - أثناء لقائه أن يرسل معه أخاه هارون عليه السلام لأنه أفصح لساناً منه.

أشبع روحك بالخشوع من حالتك الطارئة. . .

افزع مما أهمك لصلاتك ترى بعينيك عظم قدر خشوعك الذي ما كنت تعرفه من قبل. . .

إن الصلاة لا تصنع التخدير للحي بل تصنع الرضا مع الإقدام في الحياة، والسكينة مع الثبات في الموقف، وراحة البال إذ الخصم الظالم يريد أن تعيش في خوف منه وفي أسوء حال. . . وفوق هذا فإنها تستجلب الفرج والنصر والفتح المبين. فلا تفوِّت فرصة الحدث الطارئ.

إذا غلبتك الهموم والغموم والديون. . فاحذر! فإنك إن استسلمت

لوارداتها أتت عليك، ولكن توضأ من فورك وافزع إلى صلاتك على عجل. . . واسكن بين يدي السميع العليم.

فإن اللَّه - سبحانه - يراك حين تقوم وأنت عبده المهموم. . . ويراك وأنت توحده بشكوى الإفضاء. . . يراك ذاوياً في وقوفك. . . تميد بين يديه، يراك وقد ختمت بأكرم ما فيك الأرض بختم العبودية للَّه وحده حين وضعت أنفك وجبهتك ممكناً لهما على الأرض وقلبك إذ ذاك هناك يتقلب في الساجدين. . .

تطيل السجود. . تهتف به سبحانه، ولربما أخذك حال القرب فنسيت همك وغمك وأخذتَ تستغفر من ذنبك، لأن كلَّ ما كان لم يكن إلا من ذنوبك. . . تعظّمه سبحانه تتزلف إليه أن لا يجعل عقابك في الآخرة، وأن لا يجعل مصيبتك في دينك، هكذا تمضي الظروف وهكذا تتذوق كل مرة طعماً جديداً للخشوع. . . هكذا يستقر الإيمان وتستقر في كل مرة في مقام أعلى.

إذا واجهت عدوا فلا تستكن للمخاوف والوساوس. . اهرع للصلاة ترى مخزون الاستغاثة باللَّه يتفجر من قلبك في صلاتك، فتفيض تلك

الركعات بفيض خشوع. . . بطعم الاستغاثة باللَّه وحده، فاستغرق ما تشاء مستغيثاً، ولا تستكثر أي وقت يطول وأنت في هذا الحال. . فلقد قال خُبيب رضي الله عنه حين أرادوا تقديمه ليصلبوه بعد ما صلى ركعتين للَّه تعالى قبل صلْبه: «لولا أن تظنوا أن ما بي جزع من الموت لطولتها»[١].

فيالطيب ذلك اللقاء المودع. . . المستقبل، والعبد المودع للعباد المقبل على ربه حقيقة.

فإن لم يجد المؤمن هذا الحدث المجلجل حقيقة. . . صَنَعه واستحضره استحضاراً وقرّبه تقريباً. . . فعن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: عظني وأوجز، فقال: «إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدا، واجمع الإياس مما في يدي الناس»[٢].

فقوله: «صلِّ صلاة مودع» أليس هذه مشاعر يستجلبها الإنسان لصلاته لتعطيها طعماً للخشوع؟ أليست هذه مشاعر لا نظير لها بسبب اجتماع هذا

(١) رواه البخاري (٣٠٤٥).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٤١٢)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٤٠١).

اللقاء باقتراب ذاك اللقاء الحق. . . مع عدم تيقن الإنسان بقربه أو بعده؟

ألا ما أعظم سقاء الخشوع من الأحداث التي تلم بالمسلمين. . . إن ربنا سبحانه يرى إخواننا كيف يدعونه هناك من وسط المصيبة التي أصابتهم. . . يراهم كيف يدعونه. . . كيف يسجدون له، ويهتفون به، ويستغيثون.

أيمكن أن تصف استغاثة الأم الأفريقية وهي ترى المجاعة تحصد ذريتها أمام عينيها. .؟! واستغاثة المسلم البنغالي إذ هو وسط الطوفان وقد جاءتهم المياه تجرفهم مع بيوتهم. .؟! واستغاثة من التهبت قريتهم نيراناً وتفجرت حمماً من قذائف المجرمين وصواريخهم وطائراتهم. . . ؟! أو استغاثة الأسرة البورمية المستكنة في بيتها وأصوات فرق المذابح قد اقتربت منهم!

فهل يسعك أن ترفع إلى اللَّه في مقابل هذه الاستغاثات استغاثة باردة أو استغاثة متفرج بعيد؟!

أَرِ اللَّه - سبحانه وهو من يراك ويراهم- استغاثة تناسب حالهم، بل تناسب خلايا البدن العصبية إذا احترق بعض البدن بالنار، أو نشر جزء منه

بالمنشار..فعن النّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى»[١].

استغاثة من يقول لربه: هم مني وأنا منهم، أنت يا ربي ربطت رباط علاقتي بهم... إنهم إخوتي فيك وحدك... غيرتي عليهم من غيرتي على (لا إله إلا اللَّه) التي سوف تذهب بموتهم... غيرتي أن ينتصر الصليب على كلمة التوحيد، غيرتي أن ينتقم عدوك من أوليائك... !

هكذا يتفجر الخشوع بطعم الاضطرار والاستنصار.

كفاها أنها استغاثة تستجلب غيرة اللَّه... كفاها أنها غيرة تستأذن لأجلها ملائكة السماء أن تهرع للنصرة من فورها وكفى...

* * *

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦).

القبس الرابع: تفاعل مع اشتياقك
ولو كنت في مضجعك ...

لربما غلبتْ عيناك اشتياقك وهو في عنفوانه أو أول فورانه فنمت إذ ذاك ولم تشعر! فإذا هبت رياح اشتياقك قم من فورك وتذوق الخشوع في ركعات بطعم الاشتياق الصادق إلى اللّه سبحانه. . . وهكذا في كل مرة تأنس فيها اشتياقا لربك سبحانه ولو من هاتف بعيد معمور أو مطمور، أو بصيص لنور في الواد المهجور. . فلا تجعله يفوتك، وقم من جلوسك أو رقادك، وانفض عنك دثارك، واعتذر للأهل مبلغاً مغادراً. . . كأنك تقول: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، فعن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقالت لعبيد ابن عمير: قد آن لك أن تزورنا، فقال: أقول يا أمّه كما قال الأوّل: زر غبّاً تزدد حبّاً. قال فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول اللّه ﷺ قال: فسكتت ثمّ قالت: لمّا كانت ليلة من اللّيالي قال: «يا عائشة، ذريني أتعبّد اللّيلة لربّي» قلت واللّه إنّي لأحبّ قربك وأحبّ ما سرّك، قالت: فقام فتطهّر ثمّ قام يصلّي، قالت: فلم يزل يبكي حتّى بلّ حجره، قالت: ثمّ

بكى فلم يزل يبكي حتّى بلّ لحيته، قالت: ثمّ بكى فلم يزل يبكي حتّى بلّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصّلاة، فلمّا رآه يبكي، قال: يا رسول اللَّه لم تبكي وقد غفر اللَّه لك ما تقدّم وما تأخّر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً، لقد نزلت عليّ اللّيلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

أيها المقبل على اللَّه: سوف ترى أثر هذا التجافي إلى لقاء ربك فوراً... تجده محبة للَّه تعالى في قلبك تتعاظم... اشتياقاً متقداً متراكباً.. يقيمك إلى اللَّه من مضجعك... . محبة تلهب جنبك فيتجافى عن اللذائذ ولا يسكن إلا بلقاء اللَّه - سبحانه -.. محبة حقة تسبق اللقاء تجدها وأنت متجه إلى الوضوء..محبة تراها تزداد عند كل عضو من أعضاء الوضوء بهتاف القلب المصاحب لأداء الوضوء.. تراها وتعيشها وأنت تتقلب بين يدي اللَّه - سبحانه - قائماً وراكعاً وساجداً..

أيها المقبل على اللَّه - سبحانه -: هذا في الحقيقة هو نوع من الإحساس المبهر... الإحساس الحق بخطوات التقرب بل التقريب، وما

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

هذه إلا من بحر قول اللَّه في الحديث القدسي: «وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه»، وقد مرّ معنا.

هذا هو الخشوع؛ إنه ممارسة، قلبٌ يتحسس الحب فيغلب، وينقلب من حاله وإلفه إلى مقتضى حبه، لا يملك إلا أن يمشي ويمشي حتى يبلغ المنتهى كما كان ذهاب موسى عليه السلام ومنتهاه... إلى تلك الشجرة المباركة في الواد المقدس، وأكرم به من منتهى، بينما عند سدرة المنتهى كان الابتداء... ابتداء تشريع هذه الصلاة، وكأنها الإعلان لنا أن لا منتهى للصلاة أصلًا، فإنه إذا كان الابتداء بتشريع الصلاة عند سدرة المنتهى فأين سترقى بك أيها المصلي الصلاة؟ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

* * *

القبس الخامس: نوِّع أذكار الصلاة تفاجأ بأنواع الخزائن[١]

لا يشكو من جمود القلب في الصلاة غالباً إلا عبد ثبت على ذكر واحد لكل ركن من أركان صلاته... . فهو لا يغيره طيلة حياته! بينما كان رسول اللَّه ﷺ ينوِّع الأذكار في كل ركن من الأركان تقريباً.. حتى السلام من الصلاة... هذا وهو ﷺ أعرف الناس باللَّه وأعظمهم له خشية وخشوعاً، وقد كان ذكر موسى عليه السلام لربه ذكراً كثيراً وذلك لما في قوله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٤] ليدل على أنواع كثيرة من الذكر وليس مكررة فحسب.

حتى الخاشع للَّه - تعالى - يحتاج إلى أن ينوع الأذكار باستفتاح صلاته، في ركوعه وفي اعتداله وفي سجوده وفي جلوسه بين السجدتين أو في تشهده... إنه حين يذكر اللَّه بذكر جديد... .يأتيه نوعٌ من الخشوع جديد... حتى لكأنه لأول مرةٍ يخشع للَّه في ذاك الركن... بل يسري على الصلاة كلها.

(١) سوف نذكر في آخر الكتاب الأذكار الصحيحة الواردة في أركان الصلاة - بإذن اللَّه -.

احفظ هذا جيداً. . . واحفظ كل الأذكار الجديدة ولو على فترات. . . فلعلك تتذوق مما تذوقه رسول اللَّه ﷺ. . . احفظها جيداً فهذا اللقاء يستحق أن تحفظ له بإتقان، وتتفكر في الذكر الجديد وسوف تعيشه - بإذن اللَّه - من منزلة الإحسان. . . وكم تفوت منازل الصلاة العليا. . من تهاون في هذه السنة العظيمة. . . ؟!

* * *

القبس السادس: حراسة موضع الصلاة

هكذا يشرع أن يجعل العبد لصلاته حرماً مكانياً يحميه من كل مارٍ بين يديه ولو كان بِمُقَاتَلَتِهِ... إنها الحماية لهذا الحرم المكاني المخصوص... وذلك لكل من صلى إماماً لنفسه أو إماماً لغيره...

بل حتى لو كان المار بهيمة لا تعقل أو كان طفلًا يحبو... فلا يسمح له باختراق هذا الموضع.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «هبطنا مع رسول اللَّه ﷺ من سنية أذاخر فحضرت الصلاة، يعني فصلى إلى جدار، فاتخذه قبلة، ونحن خلفه، فجاءت بهمة - ولد الشاة أول ما يلد - تمر بين يديه، فما زال يدارئها حتى لصق بطنه بالجدار، ومرت من ورائه»[(١)].

وقد صح أن المصطفى ﷺ خنق شيطاناً أراد أن يمر بين يديه، فقد قال ﷺ: «إن عفريتاً جعل يفتك عليَّ البارحة ليقطع علي الصلاة، وإن اللَّه أمكنني منه فذعته[(٢)]»[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود (٧٠٨) وصححه الألباني.

(٢) فذعته: أي خنقته.

(٣) متفق عليه. رواه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (٥٤١) واللفظ له.

فلا تحسبن سترة الصلاة مجرد حد ظاهر . . . لمجرد منع المار والعابر!

لا، فرسول اللَّه ﷺ أرحم من أن يمنع مارّاً من الوصول إلى حاجته، وأرحم من أن يجعل المارَّ يتعطل طويلًا حتى وإن لم يجد إلا الطريق بين يدي المصلي فلا يمر وإن طال الزمان؛ فعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: سمعت النّبيّ ﷺ يقول: «إذا صلّى أحدكم إلى شيء يستره من النّاس فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى فليقاتله، فإنّما هو شيطان»[(١)].

عن أبي جهيم بن الصّمّة الأنصاريّ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لو يعلم المارّ بين يدي المصلّي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خيراً له من أن يمرّ بين يديه» قال أبو النّضر: لا أدري قال: أربعين يوماً، أو شهراً، أو سنة[(٢)].

تأمل السترة التي بين يديك: فإنها تبتدأ من بعد موضع مقامك واقفاً وتنتهي بعد موضع سجودك. . . إنها في الحقيقة: موقع لقائك باللَّه على هذه الأرض. . . لذا فلن يكون هذا الموقع في لحظات الصلاة كأي موقع. . . فمن أين أخذ هذا الموضع خصوصيته. . . وإن شئت قلت قدسيته؟!

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٤٨٧)، ومسلم (٣١٠٠).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٤٨٨)، ومسلم (٥٠٧).

سبحان اللَّه: أهذا الموقع مسجد؟! لا، بل لو كنت داخل المسجد وجعلتَ لك سترة لأخذ هذا الموقع خصوصية فوق الخصوصية وقدسية فوق القدسية!

إن هذا الموضع هو واديك الذي تلاقي فيه اللَّه سبحانه... مباشرة... وإن كان من بجوارك لا يشعر!

فإذا ما سلَّمتَ من صلاتك عاد كل شيء كما كان... وكل ذلك كان في الزمان الواقع ما بين تكبيرة الإحرام وبين السلام زماناً، وما بين مقام رجلك وموضع سترتك مكاناً... أفلا يستحق هذا الموضع كل هذه الحراسة والحماية؟!

إن الحقيقة التي يجب أن تكون حاضرة هنا هي أن أولى الحاضرين في هذا الموقع.. العارفين برهبته... المتجللين بجلاله وخشيته هو قلبك... فلا يليق بالقلب أن يخرج عن حد هذا الواد... عرِّف قلبك بمعنى هذا الحد ومقتضاه... عرِّفْه أن صلاتك ليست بلا حمى من مرور الأفكار وخروجها بل هي محروسة كحراسة موقع الصلاة من المار... . عرِّفْه بواجبه في حفظ حدِّ اللَّه وحقه ما دام في لقائه سبحانه.

القبس السابع: حماية أجواء الصلاة

هل سمعت ذكراً للشيطان - نعوذ باللَّه منه - في الواد المقدس؟! لا واللَّه، ومعاذ اللَّه... كيف واللقاء مع رب العالمين - سبحانه وتعالى علوّاً كبيراً...

ادخل - أيها المصلي - إلى بيت اللَّه في أرضه، وخذ هذه الوقاية العظيمة عند دخولك، لتسلم لك صلاتك ويصفو لك نورك ويخلص لك خشوعك، فعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النّبيّ ﷺ: أنّه كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ باللَّه العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشّيطان الرّجيم»[1] أرأيت استعاذة أعظم من هذه الاستعاذة؟! إنها استعاذة تناسب عظم المطلوب.

ثم إذا ما داخلك الشيطان في الصلاة وحاول سلب خشوعك فعد إلى اللَّه سريعاً واستعذ باللَّه، فقد أتى عثمان بن أبي العاص النّبيّ ﷺ فقال: يا

(١) رواه أبو داود (٤٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٠٦).

رسول اللَّه إنّ الشّيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، يلبسها عليّ. فقال رسول اللَّه ﷺ: «ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوّذ باللَّه منه، واتفل على يسارك ثلاثا» قال: ففعلت ذلك فأذهبه اللَّه عنّي[١].

لا يخادعنك الشيطان فيصور لك ذهاب الخشوع أمراً عاديّاً وأن المهم أن تؤدى صلاتك كاملة وتُسَلِّم منها، وأن أغلب الناس قد ذهب خشوع صلاتهم! لا، بل إنه حق سليب.. سَلَبَهُ الشيطان وهوّنه علينا! فوجب علينا استرجاعه فوراً.

إن الصلاة هي ساعة الصراع الكبرى لنا على مدار اليوم والليلة بيننا وبين الشيطان نعوذ باللَّه منه.

لو كان الأمر رخيصاً عند الشيطان لم يقاتل في الصلاة لأجل أن يختلس اختلاسةً من المصلي ويطير بها، أو يُلْفِت المصلى في صلاته التفاتة فيخرج بها، أو يجعله يتحرك حركة واحدة ولو كانت حكة، وقد سئل النبي ﷺ عن الالتفات فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[٢].

(١) رواه مسلم (٢٢٠٣).
(٢) رواه البخاري (٧١٨).

لو كان الأمر رخيصاً عند الشيطان لم يأتنا في الصلاة فيذكِّرنا بأموال وأشياء ثمينة فقدناها ليشتري في مقابلها من صلاتنا فكرة واحدة أو انصرافةً خاطفة، أو التفاتة سريعة!

ومن هذا الباب جاءت حماية أخرى للخشوع في الصلاة، وذلك بإغلاق كل مداخل الشيطان للخشوع... فلقد روت عائشة رضي الله عنها عن النّبيّ ﷺ قال: «إذا وضع العَشاء وأقيمت الصّلاة فابدأوا بالعَشاء»[١].

ولمسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا صلاة بحضرة الطّعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»[٢].

وهكذا فلقد قطع النبي ﷺ كل طريق على ذهاب الفكر في الصلاة إلى خارجها... فنهى عن أي شيء يسلب نظر المصلي... فإن العين إذا انصرفت وراء شيء انصرف القلب وراءها.. فتذهب العين تتبع الزخارف والأشكال وتتيه في ما وراء ذلك، والقلب وراءها إلى حيث لا يفيق المصلي إلا على خسرانِ أثمن شيء، في عمره وهو صلاته... لذا نهى ﷺ عن زخرفة المساجد وزخرفة ما يصلى عليه وهكذا.. فعن عائشة

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٦٤٠)، ومسلم (٥٦٠).
(٢) رواه مسلم (٥٦٠).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّ النّبيّ ﷺ صلّى في خميصة لها أعلام، فنظر إلى أعلامها نظرة، فلمّا انصرف، قال: «اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانيّة أبي جهم، فإنّها ألهتني آنفاً عن صلاتي» وقال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: «كنت أنظر علمها وأنا في الصّلاة فأخاف أن تفتنني»[١].

بل إن النبي ﷺ أمر برص الصفوف في الصلاة حتى لا يخترقها شيطان فيخترق نفوس أصحابها، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «رصوا صفوفكم وقاربوا بينها، وحاذوا بالأعناق، فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنها الحذف»[٢].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المنكبين، وسدوا الخلل، ولينوا بين إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفاً وصله اللَّه، ومن قطع صفاً قطعه اللَّه»[٣].

ولا تحسبن دخول الشيطان من خلل الصفوف وفرجاتها لمجرد

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٣٦٦)، ومسلم (٥٥٦).
(٢) رواه أبو داود (٦٦٧)، وصححه الألباني.
(٣) رواه أبو داود (٦٦٦)، وصححه الألباني.

الدخول، إنما هو دخول السارق القصر العامر بعدما تساهل الحارس بفتح الحصن له، ولمسلم: «كان رسول اللَّه ﷺ يسوّي صفوفنا حتّى كأنّما يسوّي بها القداح، حتّى رأى أنّا قد عقلنا عنه، ثمّ خرج يوماً فقام حتّى كاد يكبّر، فرأى رجلًا بادياً صدره من الصّفّ، فقال: «عباد اللَّه لتسوّنّ صفوفكم، أو ليخالفنّ اللَّه بين وجوهكم»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «سوّوا صفوفكم، فإنّ تسوية الصّفوف من تمام الصّلاة»[٢].

يا أيها العاقل: ليس المهم أن تقتني مزرعة جميلة مثمرة فحسب إنما المهم أن تحسن حراستها خصوصاً إذا كثرت المخاطر. . . وما من غنيمة يتمنى الشيطان سرقتها مثل الصلاة. . . أنسينا أن الشيطان طُرِد من الجنة لتركه السجود. . والسجود أرفع شيء في الصلاة؟

أم نسينا كيف أن العبد إذا قرأ الآية فسجد ولَّى الشيطان، كما روى

(١) مسلم (٤٣٦).
(٢) رواه مسلم (٣٣٣).

أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أنه قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله - وفي رواية أبي كريب: يا ويلي - أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»[١].

أم نسينا أن الشيطان يعقد عقده ليبقى المسلم نائماً عن صلاته فيقول النبي ﷺ: «يعقد الشّيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على مكان كلّ عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر اللَّه انحلّت عقدة، فإن توضّأ انحلّت عقدة، فإن صلّى انحلّت عقدة، فأصبح نشيطاً طيّب النّفس، وإلّا أصبح خبيث النّفس كسلان»[٢].

بل حربه على الصلاة قبل ذلك، إنه يبيت على خيشوم ابن آدم لأجل الصلاة، فيقول النبي ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثاً، فإن الشيطان يبيت على خيشومه»[٣].

فإن وقف المصلي ودخل في صلاته عاد الشيطان إليه ثانية بعدما فرّ

(١) رواه مسلم (٨١).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (١٠٩١)، ومسلم (٣٠٩٦).
(٣) متفق عليه. رواه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٣٨).

حين سمع الإقامة حين يقف بين يدي اللَّه فيقول: اذكر كذا اذكر كذا حتى ينسيه كم صلى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا نودي للصّلاة أدبر الشّيطان، وله ضراط حتّى لا يسمع التّأذين، فإذا قضي النّداء أقبل، حتّى إذا ثوّب بالصّلاة أدبر، حتّى إذا قضي التّثويب أقبل، حتّى يخطر بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا اذكر كذا- لما لم يكن يذكر- حتّى يظلّ الرّجل لا يدري كم صلّى»[1]، بل أكثر من هذا حين يأتي يشككه بخروج ريح منه ليبطل صلاته، وقد شُكِيَ إلى الرسول ﷺ الرجل الذي يخيل إليه أنه يجد الشيء في الصلاة؟ فقال: «لا ينفتل - أو لا ينصرف - حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً»[2]... أي تحدٍّ هذا...!؟

لكن رسول اللَّه ﷺ ما تركه ولا ترك عليه باباً إلا أغلقه، ولا أمراً مظلماً أو خفياً إلا كشفه، فعن أبي روح الكلاعي قال: صلى بنا نبي اللَّه ﷺ صلاة فقرأ فيها بسورة (الروم) فلبس عليه بعضها فقال: إنما لبس علينا الشيطان القراءة من أجل أقوام يأتون الصلاة بغير وضوء، فإذا أتيتم الصلاة

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٥٨٣)، ومسلم (٣٨٩).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (١٣٧)، ومسلم (١٩٥١).

فأحسنوا الوضوء»[١].

بل إنه يداخل الذاكرة ويغالبها بالأمور المنسية لصلاته، المذهلة له عن خشوعه... ومع هذا فما تركه النبي ﷺ بل أعطى المسلم الوقاية من كل ذلك فقال: «إذا شك أحدكم في صلاته، فلم يدركم صلى أثلاثاً أم أربعاً فليطرح الشك، وليبن على ما استيقن، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم، فإن كان صلى خمساً شفعن به صلاته، وإن كان صلى إتماماً لأربع كانت ترغيماً للشيطان»[٢].

وما بين ذلك كله فإن المسلم وهو في أول ركعة قبل قراءة القرآن يستعيذ باللَّه من الشيطان الرجيم، بل إنه في أول كل ركعةٍ علي الراجح يستعيذ باللَّه من الشيطان الرجيم...

فليست هذه الحراسة إلا دليلًا على عظمة هذه الصلاة وغلائها، ودليلًا على خطورة هذا العدو وشدة هجومه وتركيزه على هذه اللحظات... ومن ثمّ احتاجت كل ركعة إلى استعاذة، واحتجنا أن نعرف معني الاستعاذة باللَّه... وأنه لا عاصم إلا اللَّه... فلنحسن فهم الاستعاذة... ولنحسن

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٤٧١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٢).
(٢) رواه مسلم (٥٧١).

العياذ باللَّه فإن الاستعاذة كافية للحماية من شره، ورده على عقبه.

وكم يخطيء بعض المصلين وهو يمتدح الشيطان الرجيم بإفساده صلاته! ويقول إن الشيطان في كل مرة يأخذه في رحلة فلا يشعر إلا وقد انتهت صلاته... ! فإياكم ومدح الشيطان فإن ذلك يغريه أكثر وهو حقير وضعيف، وما قوي إلا بمثل هذا، فعن أبي تميمة الهجيمي، عمن كان رديف النبي ﷺ، قال: كنت رديفه على حمار، فعثر الحمار، فقلت: تعس الشيطان، فقال لي النبي ﷺ: «لا تقل: تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم الشيطان في نفسه، وقال: صرعته بقوتي، فإذا قلت: بسم اللَّه، تصاغرت إليه نفسه حتى يكون أصغر من ذباب»[(١)].

إن الوضع لا يحتمل أن يتشاغل المرأ بهيئته في صلاته، ولا بتعديل موضع سجوده، ولا بثيابه ولا بشعره... إنه التفويض الكامل قلباً وقالباً... إحساساً وحسياً.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى رسول اللَّه ﷺ أن يصلي الرجل مختصراً»[(٢)] أي واضعاً يده على خاصرته.

(١) رواه أحمد (٥/ ٥٩)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.
(٢) رواه البخاري (١٢٢٠)، ومسلم (٥٤٥).

فليس موضع اليد هو الخاصرة إنما موضعها الصحيح هو الموضع الذي شرعه رسول اللَّه ﷺ، ولقد شرع رسول اللَّه ﷺ لليد في كل هيئة من هيئات الصلاة كيفيتها التي ينبغي للمصلي أن لا يخالفها... وكم تأكل الأيدي من عدم خشوع أصحابها، ففي كل حركة غير مشروعة يهدّ المصلي من صرح خشوعه ما يهدّ، حتى يدعه في نهاية الصلاة كالرميم.

وهكذا الأمر في الثياب والشعر، وكم يضيع المصلون من خشوعهم بتعديل ثيابهم وقمصانهم وأغطية رؤوسهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ أمر أن يسجد على سبعة أعظم، ونهى أن يكف شعره وثيابه»[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل المسجد فرأى فيه رجلًا يصلي عاقصاً شعره، فلما انصرف قال عبد اللَّه: إذا صليت فلا تعقصن شعرك فإن شعرك يسجد معك، ولك بكل شعر أجر، فقال الرجل: إني أخاف أن يترب، قال: «تتريبه خير لك»[(٢)].

* * *

(١) رواه مسلم (٤٩٠).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ١٩٤)، قال الشوكاني: إسناده صحيح، انظر: نيل الأوطار (٢/ ٣٨٧).

القبس الثامن: الجلال المحيطة بالخاشع

تسألني عن ذاك الجلال فتقول: ما هو؟ ومن أين هو؟ ومم هو؟!

أقول: إنه جلال المهابة يلفّ العبد الخاشع لفاً... هو من أثر هذا الخشوع المبارك.. إنه مشاعر حقة تظهر على جلد الإنسان وشعره وبشره وما استقلت به قدمه.. وليست هي مشاعر كامنة في فكر الإنسان، وعلمه فحسب، إنه شعور لا علاقة له أحيانا بالعلم.

تعال سل بعض الكبار الذين لا يعرفون لغة ولا فقهاً ولا تفسيراً: ما الرعدة التي تصيبهم إذا وقفوا للصلاة؟ ما المهابة التي تأخذهم لمجرد الاستماع للقرآن.. أو لمجرد الدخول في الصلاة بتكبيرة الإحرام.. أو لمجرد وضع اليمين على الشمال... أو لمجرد الانحناء للركوع؟ إنه علمهم الكافي أنه ركوع أمام اللَّه العظيم.

أرأيت مشاعر خوف المفزوع من شيءٍ مفاجئ كيف تنبعث في لحظة من قلب صاحبها... هكذا الخائف من اللَّه، ولكن شتان بين من يفر «إلى» وبين من يفر «من»!

أرأيت ماذا قال اللَّه سبحانه عن أصحاب الكهف: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨] من أين جاء هذا الرعب؟ كيف ظهر؟ كيف أصبح أثره الفرار بعد الامتلاء بالرعب؟ أيمكن أن ينكر هذا أحد؟

إن هذا الفيض من الخشوع هو في حقيقته خوف ومهابة من اللَّه وهو أحياناً تعظيم وإجلال للَّه، وهل أعظم من اللَّه سبحانه شيء. . . ؟! نحن لا نتحدث إلا عن حاسة. . . صادقة. . . شفافةٍ.

سلوا زين العابدين علي بن الحسين ما هذه الصفرة التي تعلوه إذا قام يتوضأ للصلاة؟! إنه أمر أوضح من الواضح عند أهله. . وأغمض من الغامض عند الآخرين. . .

لا أتصور مثلًا للطوق الذي يحيط بالمصلي الخاشع في صلاته مثل هالة النور حول النجوم أو القمر إذا كان في السماء قتر. . . لقد أحاط بالخاشع هذا الجلال من أثر فيض قلبه حين خشع لعظمة اللَّه وجلاله وكلام اللَّه وآياته. . . جزاءً لإجلاله للَّه - سبحانه -.

وقد صح فى الحديث: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها

عليكم قبوراً كما اتخذت اليهود والنصارى في بيوتهم قبورا، وإن البيت ليتلى فيه القرآن فيتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض»[١] فالأرض ظلام دامس عند الملائكة إلا المواضع التي يقرأ فيها القرآن. . .

فإذا كان هذا حال البيت الذي يقرأ فيه القرآن، فكيف بمركز هذا الكوكب الدري وهو قارئ القرآن. . . وهل الصلاة إلا قراءة القرآن وذكر اللَّه. . . وهل حياة الصلاة إلا بالخشوع فيها. . . وهل تنزلت الملائكة على أسيد بن حضير وغيره من الصحابة منيرة في الليل المظلم كأنها مواكب النجوم، والكواكب تدنو وتدنو من إلا حين قام الليل قارئاً للقرآن؟!

هل الخشوع إلا أثر من آثار تعظيم اللَّه، وتعظيم كلامه، وتعظيم فضله ونعيمه، وتعظيم عذابه وهكذا، وبارك اللَّه ذلك المحيط بعبده فأصبح على العبد وكأنه الغلاف الجوي الحامي للأرض من الشهب والنيازك المحيطة بها من كل جهاتها. . . إن ذلك الطوق أصعب ما يكون اختراقه على الشيطان، إن أصل هذا الجلال المحيط هو ما وقع في الكيان من أثر

(١) أخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء، وجود إسناده الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣١١٢).

وتأثر للخشوع حتى بلغ مبلغاً لايوصف، كما قال المصطفي ﷺ: «خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي، وإذا رفع قال: اللَّهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، وإذا سجد قال: اللَّهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك اللَّه أحسن الخالقين، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: اللَّهم اغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت، وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المأخر، لا إله إلا أنت»[1].

لو كشفت للأبصار حقيقة هذا الذاكر الخاشع والمصلي الخاضع رأوه كأنه النور يتوهج من مشكاة فيها مصباح... المصباح في زجاجة، بل واللَّه حتى المكان الذي يصلي فيه ويذكر اللَّه سبحانه فيه، له فيه عيون أهل السماء نور... من بين ظلام يعم الأرض كلها.

إن الظلام يعم الأرض إلا تلك البقع في الأرض وهكذا تراه ملائكة

(١) رواه مسلم (٧٧١).

السماء كما مرّ ذلك معنا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تجعلوها عليكم قبوراً كما اتخذت اليهود والنصارى في بيوتهم قبورا، وإن البيت ليتلى فيه القرآن فيتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض»[1].

هكذا هو الخشوع؛ إن فيه ما فيه من الواد المقدس وأجوائه، بل فيه ما فيه من سدرة المنتهى وما فيها وما أحاط بها مما لا يقدر أحد على وصفه حيث شرعت الصلاة عندها، أليست الصلاة لقاء العبد باللَّه ذي الجلال والإكرام..

إن الشيطان يخسأ أن يستحوذ على عبد فاض خشوعه من قلبه، فاقشعر له جلده، وتجللته المهابة من اللَّه رب العالمين من كل جهاته... فإن من معاني الاستحواذ الإحاطة من كل الجهات، وكذا الحماية كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

والشيطان لا يفتأ محاولًا الاستحواذ على العبد من كل جهاته، ولا يتمكن من ذلك إلا بالحيلولة بينه وبين صلاته، فعن أبي الدّرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدو، لا

(١) سبق تخريجه (ص٩٧).

تقام فيهم الصّلاة إلّا قد استحوذ عليهم الشّيطان، فعليك بالجماعة فإنّما يأكل الذّئب من الغنم القاصية»[١].

لذلك فصراع الشيطان على قلب المصلي خاصة، والقلب بشكل عام، كما فسر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لفظ «الخناس» بهذا فقال: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها غفل ووسوس»[٢].

فأنى للشيطان من نصيب في هذا القلب الفائض بالخشوع، أَوَلَهُ استحواذ على هذا الجسد المحاط بهذا الجلال، وكأن الخشوع لباس ما بين جلده وثيابه، أو هالة ما فوق هامة رأسه مسبلة عليه إلى ما حوله إلى مدى لا يعلم به إلا اللَّه.

هكذا هو جو المسجد المحيط بالفرد، وجو المحرم في ساحة عرفات، وهو الجو الذي يستشعره المعتكف من حوله، وقارئ القرآن عند خشوعه، والذاكر في ذروة حضوره.

❊ ❊ ❊

(١) رواه أبو داود (٥٤٧)، وحسنه الألباني.
(٢) الوابل الصيب (٥٦).

القبس التاسع: الجو الجماعي

كثيراً ما يصف المصلي نفسه بالنفاق حين يقارن بين صلاته مع الناس وبين صلاته بمفرده. . . فلا يظهر له إلا الفارق الكبير بينهما، حيث يجد أن صلاته بين الناس منضبطة بخلاف صلاته بمفرده فإنها كثيرة الحركة قليلة الخشوع وما إلى ذلك. . . وغالباً ما يكون وصف الإنسان نفسه بالنفاق لهذا السبب، وهذا من الشيطان. . . فإنه من الطبيعي أن تكون للجماعة المزايا الشرعية التي لا تكون للفرد، ويكون للجماعة جوها الإيماني المحيط بالحاضر، فهنا الإنسان منفرد بينما هو في الجماعة مُعانٍ، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خطبنا عمر بالجابية، فقال: يا أيّها النّاس، إنّي قمت فيكم كمقام رسول اللَّه ﷺ فينا، فقال: «أوصيكم بأصحابي، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ يفشو الكذب، حتّى يحلف الرّجل ولا يستحلف، ويشهد الشّاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلونّ رجل بامرأة إلّا وكان ثالثهما الشّيطان، عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفرقة، فإنّ الشّيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنّة

فليلزم الجماعة، من سرّته حسنته، وساءته سيّئته فذلك المؤمن»[١].

وعن قباث بن أشيم الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «صلاة الرجلين يؤم أحدهما صاحبه أزكى عند اللَّه من صلاة أربعة تترى، وصلاة أربعة يؤم أحدهم صاحبه أزكى عند اللَّه من صلاة ثمانين تترى، وصلاة ثمانية يؤم أحدهم صاحبه أزكى عند اللَّه تعالى من صلاة مائة تترى»[٢].

فكيف لاتفترق صلاة الجماعة عن صلاة الفرد، ولا يفترق خشوعك مع الجماعة عن خشوعك مع الفرد؟!

أتدري أيها العبد كم هي جموع الملائكة الذين حضروا صلاة الجماعة... أتدري كم أعداد الجن الصالحين الذين استجابوا للنداء فكانوا في ذلك الموقع لبداً؟!

أتدري أي سكينة وطمأنينة تتنزل بهؤلاء وتأتي مع هؤلاء، ثم هذه الصفوف المتراصة الحبيبة إلى اللَّه... كم لها من الإعانة والإكرام من

(١) رواه الترمذي (٢١٦٥) وصححه الألباني.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٦٦٢٦)، وقال الألباني: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب (٤١٢).

نظر اللَّه سبحانه وهو ينظر إليها سبحانه. . . ؟!

وكم من أزيز في صدر خاشع في الصف الطويل ارتفع قليلًا فسُمع، فحرك الخشوع في قلوب غافلين في صلاتهم فغاروا وعادوا للخشوع. . . وكم من نشيج صادق بخشية اللَّه أفاق صفوفاً وأعاد قلوبهم إلى اللَّه؟ وكم نفع بالمحسنين في صلاتهم المسيئين فوهبهم اللَّه لأجلهم، ألم يقل النبي ﷺ: «إن اللَّه تطول عليكم في جمعكم هذا، فوهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطى محسنكم ما سأل»[١].

نعم لا بد للإنسان أن يعوِّد نفسه التلذذ بالصلاة منفرداً. . . لا بد له أن يأنس بالخلوة باللَّه سبحانه. . . لابد له أن يمارس تعظيم اللَّه سبحانه إذا كان وحيداً بربه. . . لكن لا ينبغي أن يُصدَّق الشيطان في تلبيسه علينا بتهمة النفاق، أو بالتفضل المطلق لصلاة الفرد نافلة على صلاة المسجد. . . إن الأصل تفضيل النافلة منفرداً بغير شك ولكن لهذه فاعليتها ولهذه فاعليتها في النفس، وكل ذلك ثابت في السنة، وكل نفس تتغذى بطريقتها ولا تستوي الأمور في كل وقت.

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٢٤)، وصححه الألباني.

من نظر في فاتحة الكتاب وجد أن خطابها للجماعة، فدعاؤها وثناؤها جماعة... وتأمينها جماعة والنبي ﷺ يقول: «ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على الإسلام والتأمين»(١).

وقد كان ﷺ إذا قرأ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «آمين» ورفع بها صوته(٢).

وثبت في الحديث: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين»(٣).

والمراد بـ «التأمين» هنا هو قول المصلي «آمين» عقب قراءة الفاتحة، فالتأمين الجماعي مزية عظيمة.

فالأحاديث مبينة لمسجد النبي ﷺ وحال الصحابة إذا قال: «آمين».

وقد كان للناس بالتأمين رجة يرتج بها المسجد، فعن عطاء قال: «كنت اسمع الأئمة، وذكر ابن الزبير ومن بعده - يقولون: آمين، ويقول من

(١) رواه ابن ماجه (٨٥٦)، وصححه الألباني.
(٢) رواه أبو داود (٩٣٢) صحيح.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

خلفه: آمين حتى إن للمسجد للجة»[١].

وهذه اللجة لا تكون إلا بالاتفاق في الأداء، فقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قال الإمام: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقولوا: آمين، فإن الملائكة تقول: آمين، والإمام يقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢].

فإن في هذا الحديث ثلاثة مؤَمِّنين: الملائكة والإمام والمأمومين والمأموم إما أن يوافق الملائكة أو يوافق الإمام... وأنا أرى أن الصحيح والفهم الجامع هو الموافقة المطلقة بحيث يتوافق تأمين المأموم والإمام مع الملائكة... لأن الاثنين بحاجة لمغفرة الذنب - واللَّه أعلم -.

وعن عطاء قال: «كان أبو هريرة يدخل المسجد وقد قام الإمام فيناديه فيقول: لا تسبقني بآمين» قال ابن حجر: «ومراد أبي هريرة أن يؤمن مع الإمام داخل الصلاة»[٣].

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه.
(٢) رواه النسائي(٩٢٧)، وصححه الألباني.
(٣) انظر فتح الباري (٢/ ٢٦٢).

ولقد أذهب بعض الأئمة - وللأسف - روح التأمين ومهابته، وغاية التأمين الجماعي وزجله وهو يرتفع إلى اللَّه سبحانه حين تقصدوا قطع مدى التأمين ومدّ الصوت المعتاد في هذه الأمة في صلاة الجماعة. . .

فأصبح بعض الأئمة إذا قال: «ولا الضالين» خطف «آمين» خطفاً بحركة أو جزء حركة، فتبعثر التأمين، وتناثر الصوت، وذهبت روح الوحدة في تأمين الصلاة التي حسدتنا عليها اليهود، وأصبح هذا الفعل عند بعض الأئمة والمصلين سنة متبعة.

أولا يعلم هؤلاء أن للإمام ورش في ألف «آمين» ثلاثة أوجه وهو ما يعرف بثليث البدل حيث يُمد ست حركات على أحد الأوجه، وأما المد العارض للسكون فلجميع القراء جواز مده ست حركات.

ولقد احتج من قال بتأخر تأمين المأموم عن الإمام بالحديث: «إذا أمن الإمام فأمنوا»؛ «لأنه رتب عليه بالفاء، لكن الجمهور قالوا: إن المراد المقارنة، وقوله: «إذا أمن» أي إذا أراد أن يؤمن، وقال الشيخ أبو محمد الجويني: لا تستحب مقارنة الإمام في شيء من الصلاة غيره، قال إمام الحرمين: يمكن تعليله بأن التأمين لقراءة الإمام لا لتأمينه، فلذلك لا

يتأخر عنه وهو واضح» [١].

«وقال ابن المنير: الحكمة في إيثار الموافقة في القول والزمان أن يكون المأموم على يقظة للإتيان بالوظيفة في محلها، لأن الملائكة لا غفلة عندهم، فمن وافقهم كان متيقظاً، ثم إن ظاهره أن المراد بالملائكة جميعهم، واختاره ابن بزيزة، وقيل: الحفظة منهم، وقيل الذين يتعاقبون منهم إذا قلنا إنهم غير الحفظة، والذي يظهر أن المراد بهم من يشهد تلك الصلاة من الملائكة ممن في الأرض أو في السماء، وسيأتي في رواية الأعرج بعد باب: «وقالت الملائكة في السماء آمين»، وفي رواية محمد بن عمرو الآتية أيضاً: «فوافق ذلك قول أهل السماء»، وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال: «صفوف أهل الأرض على صفوف أهل السماء، فإذا وافق «آمين» في الأرض «آمين» في السماء غفر للعبد»[٢] انتهى.

ومثله لا يقال بالرأي فالمصير إليه أولى»[٣].

وعمدة هذه المسألة هو قوله ﷺ: «فمن وافق» فإذا لم يتوافق المصلون

(١) انظر فتح الباري (٢/ ٢٦٤).
(٢) انظر فتح الباري (٢/ ٢٦٥).
(٣) انظر فتح الباري (٢/ ٢٦٤).

والإمام أساساً فكيف تحدث موافقة أهل السماء لهم ؟!

وهكذا أذهب أهل هذا الزمان التأمين المطلق بعد الدعاء في غير الصلاة رغم ما ورد فيه من فضائل عظيمة، يقول خاتمة الحفاظ، وحافظ السنة وحارسها ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وورد في التأمين مطلقا أحاديث، منها: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعا: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين» رواه بن ماجة وصححه بن خزيمة، وأخرجه بن ماجة أيضا من حديث بن عباس بلفظ: «ما حسدتكم على آمين فأكثروا من قول آمين»، وأخرج الحاكم عن حبيب بن مسلمة الفهري سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمن بعضهم إلا أجابهم اللَّه تعالى»، ولأبي داود من حديث أبي زهير النميري قال: «وقف النبي ﷺ على رجل قد ألح في الدعاء، فقال: «أوجب إن ختم»، فقال: «بأي شيء؟» قال: بآمين، فاتاه الرجل فقال يا فلان اختم بآمين وأبشر». وكان أبو زهير يقول: آمين مثل الطابع على الصحيفة»[1].

فالاجتماع على الدعاء سنة، والتأمين الجماعي على الدعاء سنة، والإكثار منه سنة، كما أن التأمين الفردي سنة.

---

(١) انظر فتح الباري (١١/ ٢٠٠).

عوامل الخشوع من ذات الصلاة

لا تذهب بعيداً بحثاً عن خشوع لصلاتك...

فقد جعل اللّه سر خشوع صلاتك... في ذات صلاتك.

عوامل الخشوع من ذات الصلاة

العامل الأول: قبس من معاني: «اللَّه أكبر»[١]

إن تكبير اللَّه - سبحانه وتعالى - هو غاية الصلاة، واللَّه هو العلي الكبير، ولا يدري المرء كيف يمكن أن يتحقق الخشوع في الصلاة بغير تكبير العبد للَّه - سبحانه -، وبغير إعلان التكبير...؟ ليس بمعنى أن يقول بلسانه: «اللَّه أكبر» فحسب وإنما بفهمها، ومعرفة ذخائر التعظيم فيها، فليس له إلا تصغير حاله والخوف في مقابل «اللَّه أكبر» كما أنه ليس له إلا العزة بجوار «اللَّه أكبر» موقفه الآن، وموقعه الذي يجب أن لا يشرد عنه لحظة.

وفي هذه الكلمة يجتمع أمران عظيمان وهما: فثمة فرار ولكن إلى اللَّه.

وإلا فإن من خاف شيئاً أو رهبه فرَّ منه.. إلا اللَّه سبحانه، وأوضح مثال عليها هذه الصلاة التي لا تبتدئ إلا بـ: «اللَّه أكبر».

---

(١) وهنا أذكر أن كل عامل من العوامل المذكورة له ارتباط مخصوص بقصة موسى عليه السلام في الوادي المقدس.

بل إن مشاعر التكبير التي علت قلب المؤمن وفكره جعلت ملاذه الذي يأوي إليه هو الصلاة، وجعلت عنوان ذلك التعبيرهو تكبيره للَّه رب العالمين.. ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وكما قال سبحانه: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾.

تأمل قليلًا هذا التكبير: لقد دخل وقت الصلاة بالتكبير في الأذان... وابتدأت إقامة الصلاة بالتكبير... وتم الدخول في الصلاة بتكبيرة الإحرام... ..ويتم الانتقال إلى كل ركن من الأركان ومنه بالتكبير في داخل الصلاة، إلا الاعتدال من الركوع والسلام من الصلاة... كما سيأتي إن شاء اللَّه.

إيه يا قلبي أفق! فإن اللَّه رب العالمين يُعرِّفك بنفسه سبحانه في أول هذا اللقاء..كما عَرَّفَ موسى عليه السلام في أول ذلك اللقاء فقال له: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾! فهل من شيء يذهلك عن كل شيء أكثر من أن يعرفك اللَّه بنفسه.. حيث اسمه الجامع لكل أسمائه الحسنى (اللَّه) سبحانه وتعالى؟

إن تعريف اللَّه - سبحانه - بنفسه في كل مرة تدخل فيها للصلاة،

يدلك دلالة قاطعة أنه لقاء. . . فهل عرفنا مقصود التكبير؟! وإذا كنا عرفنا اللَّه - سبحانه - فهل ازددنا به معرفة كلما تجدد اللقاء. . . ؟!

إيه يا قلبي افقه: فإن للتكبير في كل الصلاة حكمة، ولتكبير اللَّه في تحريم الصلاة حكمة كبرى، كم تزدحم المواضيع في ذهن هذا الواقف لصلاته. . . كم تتنوع مشاغل الحياة ومشاكلها وهمومها الكبرى، فبالتكبير تنقشع كل الهموم، وتغيب الاهتمامات، حيث تقول - لنفسك قبل غيرك - وأنت الواقف المتهيئ للقاء ربك: **اللَّه أكبر**.

اللَّه أكبر. . هكذا شرع اللَّه أن تكون كلمة «اللَّه أكبر» في الإحرام للصلاة، . . ومن ذا الذي لا تتجدد عليه همومه واهتماماته الكبرى أثناء الصلاة، ومن ثم كانت «اللَّه أكبر» طوال الصلاة وعند مفاصلها الانتقالية. . . فهل يشرد قلب وأمامه ووراءه «اللَّه أكبر»؟!

اللَّه أكبر: اخضع أيها القلب الخُضوع الأكبر. . . وأنت تسمع اللَّه أكبر حيث أنت بين يدي اللَّه الأكبر - سبحانه.

اللَّه أكبر: أكبر ما يقتلع قلب العبد من انهماكه بلعبه، ويده من شغله، والصاحب من بين صحبه، والوالد من ولده وزوجه. . . إلى حيث صدر

هذا النداء الأكبر. . . استجابة فورية للقلب وهو الملك، فنهضت الجنود مسرعة تتبعه حيث توجه. . . وقد توجه القلب إلى حيث النداء.

اللَّه أكبر: تقيم العبد من عميق رقاده، وركام دثاره مولياً وجهه شطر بيت اللَّه. . . لا يسكن حتى يستقر في بيت اللَّه فيُري ربه أنه في قلبه الأكبر وأنه في حياته الأكبر.

اللَّه أكبر: فكما كانت هي البداية فقد كانت هي الغاية، ولأن هذه هي الغاية التي يجب أن توصل لها الصلاة فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. . . فصاحبها لا يهاب تغيير منكر ولا يهاب صاحب منكر وإن كان في أعين الناس أكبر. .لأنه يعرف بيقين أن اللَّه أكبر.

فبعد لقاء موسى عليه السلام ربه - سبحانه - توجه موسى نحو لقاء أكبر الطغاة فرعون.

* * *

العامل الثاني: قبس من القيام في اللقاء

كثيرون أولئك الذين لا يقدرون الخشية والخشوع في القيام للصلاة للمقتدر حق قدره.

لا تذهب بعيداً فأنا لا أريد أن أُحلل ولا أعلل تعليلًا عقلياً... فإن اغتراف القلب وصاحبه الخشوع إنما يكون أساساً من حاله وهو قائم بين يدي اللَّه يسمع كلام اللَّه، وهذا القيام هو المخزون الذي تستقي منه كل الأركان طوال الصلاة.

إن هذا القيام هو سر الخشوع الساري لبقية الصلاة حتى السلام من الصلاة، فهل ذَكَر اللَّه - سبحانه - عن موسى عليه السلام ركوعاً أو سجودا أو قعوداً.. فما كان موسى عليه السلام إلا واقفاً بين يدي ربه سبحانه، اللَّهم إلا حين قال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾؟! مع أنه هو من قال اللَّه - سبحانه وتعالى - في حقه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وهل لقاء القيامة إلا لقاء في وقوف وقيام... ثم الانصراف إلي حيث يحكم اللَّه - سبحانه.

وهل زاد القيام خصوصية في الصلاة إلا لتخصيصه بكلام اللَّه دون سواه من أركان الصلاة؟!... وهل أعظم من كلام اللَّه كلام... ؟ هل يصلح أن تقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً وقد قال النبي ﷺ كما روى ابن عباس، قال: كشف رسول اللَّه ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»[1]، فهل نعطي هذا القيام ما أعطاه اللَّه سبحانه وتعالى لكلامه؟

* * *

(١) رواه مسلم (٤٧٩).

العامل الثالث: قبس من دعاء الاستفتاح

كم في دعاء الاستفتاح بعد «اللَّه اكبر» من ثناء. . . كم فيه من تعظيم وإجلالٍ لربنا الأعلى قبل اللقاء. . . ؟

أتغفل أيها العبد وقد شَرَعْتَ بعد هذا التعريف العظيم - حيث الاستفتاح - بالثناء العظيم الذي شَرَعَهُ اللَّه لنا أول لقائه وقبل كلامه سبحانه، فمن ذلك الاستفتاح ما رواه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللَّه ﷺ أنّه كان إذا قام إلى الصّلاة قال: «وجّهت وجهي للّذي فطر السّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للَّه ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللَّهمّ أنت الملك لا إله إلّا أنت، أنت ربّي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنّه لا يغفر الذّنوب إلّا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلّا أنت، واصرف عنّي سيّئها، لا يصرف عنّي سيّئها إلّا أنت، لبّيك وسعديك والخير كلّه في يديك، والشّرّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك

وأتوب إليك»[١].

إنها الكلمات التي نناشد بها ربنا - سبحانه -... ونثني بها عليه إذ نحن الآن بين يديه...

وما ذاك إلا لأننا نُعَدُّ لما بعدها مباشرة وهو الاستماع لكلامه سبحانه وتعالى في قيامنا هذا ونحن الآن بين يديه سبحانه..

قف أيها القلب في مقام الاستفتاح ولا تتخطاه متعجلًا إلى ما بعده، فإنه الاستفتاح... فأحسن الحضور فيه... فالمهابة والإشفاق أكثر ما تكون في الابتداء... فلا يغلبن الاعتياد مهابة الابتداء... فإنه ابتداء لقائك مع ربك... رب الأرض والسماء!

سبحانك ربنا كيف استفتحت لقاء موسى في سورة طه بهذه الكلمات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾.

(١) رواه أبو داود (٧٦٠)، وصححه الألباني.

فيا أيها العبد: إياك أن تنخفض بصيرتك إلى الحياة الدنيا أو يَهْوِي قلبك في السفوح السفلى. . . وأنت تقول: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض».

اربط نظرك بموضع سجودك حيث تهوي ساجداً، بل تعرج متقرباً مقترباً.

أيها المصلي: هذه أول كلماتك التي تنطق بها بين يدي لقائك اللَّه. . فاحرص على أن تجعل قلبك هو من يقدمها إلى ربك العظيم - سبحانه - . . . فإذا حضر قلبك فيها فلن يغيب بإذن اللَّه عن سواها.

ومن تأخر حضوره عن الاستفتاح ثم حضر استوحش تأخره عن غيره.

أيها المصلي: أتقن حفظ ما ورد من أدعية لهذا الاستفتاح. . . لتقولها لربك أول ما تلاقي اللَّه في صلاتك. . . ولو أن تحفظ دعاء استفتاح بين المدة والمدة. . . فلكل دعاء سره وخُبْره. . ولكل دعاء أثره في القلب وزكاته. . . ومن لم يعرف تلك الأدعية. . . حق له أن ينكر خصوبة تلك الأودية.

كفاها معانٍ وإجلال. . أن اللَّه - سبحانه - اختارها لافتتاح لقائه إذا لاقيناه في أعظم لقاء.

* * *

العامل الرابع: الفاتحة وما أدراك ما الفاتحة

كم يفوِّت العبد على نفسه أعظم ما في الصلاة.. وهل أعظم من كلام اللَّه شيء؟!

كم يخطف العبد القيام سريعاً.. بينما كان النبي ﷺ لا يطيل في شيء من الصلاة إطالته في القيام، وهل طول القيام إلا لأجل القرآن؟!

فإن ربك في وقوفك هذا يكلمك، وإنك إن لم تستمع لربك سبحانه يكلمك فقد أخبرك سبحانه أنه يكلمك فثق باللَّه، فإنه يكلمك ويجيبك... فإذا علمت هذا فكيف سيكون حالك عندها؟

إن قراءتك للقرآن في كل الأحوال شيء عظيم.. أما أن تقرأ كلام اللَّه... واقفاً بين يدي اللَّه في صلاتك فهذا شيء آخر! فلا تحرم نفسك طول هذا القيام مع الكلام، في لقاء اللَّه - سبحانه - يحبه.

ولا تَثْبت دائماً بعد الفاتحة على سورة معينة وعندك القرآن كله، فنوِّع يأتيك الخشوع أشكالًا وألواناً... اللَّهم إلا سورة الإخلاص إن شئت.. على أن تتفكر فيها ثم تقرأ بعدها أو قبلها ما شئت.. أو سورة أخرى لك

التذاذ مخصوص بمعانيها، وتحلق بإيمانياتها في كل مرة تقرأها.

كم قَتَلَت العادة عظمة التفكر بمعاني الفاتحة... وهي أم الكتاب كله، وهي التي ما أنزل اللَّه في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها؟! وهي التي قُدمِّت على القرآن بالذكر فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] فكأنها قدمت عليه لأنها حوت معاني القرآن، أو كأن القرآن تفصيلًا لمعانيها.

قف عند نهاية كل آية.. ومد صوتك بحرفها الأخير مدّاً.. ومعه يمتد تفكيرك ذاهباً مع عظمتها أبداً.. فلقد كان النبي ﷺ يمد صوته في نهاية كل آية... وحاشاه أن يمد من غير مزيد تفكر.. عن أنس رضي الله عنه أنّه سئل عن قراءة النّبيّ ﷺ كيف كانت؟ فقال: كانت مدّاً، ثمّ قرأ «بسم اللَّه الرّحمن الرّحيم، يمدّ ببسم اللَّه، ويمدّ بالرّحمن، ويمدّ بالرّحيم»[(١)].

لقد حاولت كثيراً وأيقنت أخيراً... أنني لن أقدر على بيان معاني سورة الفاتحة، ليس لخفاء معاني كلماتها في اللغة، ولا لجهل فيما ورد فيها من نصوص، أو عدم معرفة عامة بمن كتب وما كتب فيها وعنها إنها شيء آخر،

(١) رواه البخاري (٤٧٥٩).

فقد كان النبي ﷺ في مسيرٍ فنزل، ونزل رجل إلى جانبه، قال: فالتفت النبي ﷺ فقال: ألا أخبرك بأفضل القرآن؟ قال: بلى. فتلا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ خرج على أُبي بن كعب رضي الله عنه فقال رسول اللَّه ﷺ: «يا أُبي وهو يصلي، فالتفت أُبي ولم يجبه وصلى أبي، فخفف، ثم انصرف إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «وعليك السلام، ما منعك يا أُبي أن تجيبني إذ دعوتك»؟ فقال: يا رسول اللَّه إني كنت في الصلاة! قال: «أفلم تجد فيما أوحي إليَّ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» قال: بلى، ولا أعد إن شاء اللَّه، قال: «تحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها»؟ قال: نعم يا رسول اللَّه! قال رسول اللَّه ﷺ: «كيف تقرأ في الصلاة»؟ قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول اللَّه ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان، مثلها، وإنها سبع من

(١) رواه ابن حبان (٧٧٤)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»[١].

قال البخاري في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقرائتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع: أُمًّا»[٢].

أيها المصلي: أرجو أنك إذا حملت هذه الأفكار الخمس أن تدخل إلى مقامات لم تكن دخلتها، وتعرج معارج لم تكن عرجت إليها... وما هذه النقاط واللَّه إلا وصايا رأى كاتبها فيها ما رأى... كلٌّ حسب زاوية رؤيته وظروفه وحالته وفكرته... أمّا الفاتحة فإنها تتجلى لكل أحد... وتتسع لكل الناظرين... وهي بعد ذلك أبعد وأعظم... فليس ما أذكره تفسيراً لها، فذلك ما لا أطيقه واللَّه... فسمها نقاط إعداد للفاتحة، أو وصايا وإمداد، أو نحو ذلك، أما أن تكون تفسيراً فلا.

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٧٥) وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٥٧)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

الوصية الأولى: أن تقرأها من حيث أنت... تقرأها منطلقاً من حالتك أنت وستجدك بإذن اللّه تعيشها بل تجدها تعيشك؛ فتكون ربيع قلبك، ونور صدرك، وجلاء حزنك، وذهاب همك... تراها وكأنها تنبع من داخلك، لا من خارجك... ستجدها وسط قلبك كما أنت تريك حياتك... وترى حياتك... وتوصلك إلى غايتك.

لعلك تقول: ما فهمت شيئاً، أقول لك: ألم أقل لك أني لا أستيطع بيان معانيها الحقة... إن بيان الحقيقة غير تفسير معاني الكلمات، ولا هو شرح العبارات... إن معاني الفاتحة تدرك بمقدار ما تدرك نفسك من الحقيقة... فاقرأ الفاتحة... واصغ لها... كما أنت... وانظر في شأنك، ولا تنتظر أن تفهم من هذا الورق، **جرب**... اقرأها حين تكون مهموماً مثلًا... لا تحاول أن تنسى همك وتمثل السعادة... بل اقرأها كما أنت في همك... واسمع لجوابها من داخلك... وانظر ماذا ستصنع فيك... وكيف ستعيش فيها وتعيشها وتعيش معانيها.

جرب... اقرأها إن كنت خائفاً... من موقعك وانظر.

جرب... اقرأها وأنت سعيد أو منتصر... سترى بإذن اللّه أي شيء

جديد عجيب في هذه الفاتحة ويفتح لك بالفاتحة. . . وستجد أن رموز كل النفوس السرية فيها، أو ليست هي أم الكتاب، وتفاصيل كل الحالات الإنسانية فيها، وكل الكنوز فيها، ألم يرو ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بينما رسول اللَّه ﷺ وعنده جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ سمع نقيضا فوقه، فرفع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته»[1].

إذاً فالمسألة ليست في المشاعر والأحاسيس فحسب إنما في الإيتاء الفعلي «**إلا أوتيته**» كما قال جبريل للنبي ﷺ، وفي رواية أخرى «**إلا أعطيته**»، وهذا هو الجامع ما بين الفاتحة وخواتيم البقرة، إنهما دعاء شامل ومحقق الإجابة، بل إجابته سبقت. . . وهو لا يحتاج إلى شيء مما تحتاجه الأدعية الأخرى، لأن اللَّه سبحانه قد قال: «قد أجبت» أو قال: «هذا لعبدي ولعبدي ما سئل».

(١) رواه النسائي (٩١٢)، وصححه الألباني.

اقرأها كيفما تكون وليقرأها كل واحدٍ كما هو. . . ولو قرأها كل أحدٍ كذلك فسيجد كل أحدٍ منها بغيته وغنيته. . . وهكذا طوال عمره. . . وطوال عمر الناس إلى يوم القيامة.

ففيها السر الذي لا يدرك. . . حيث يجد كل واحد ما لم يكن يحلم به. . . وكأنه لم يقرأها بلسانه هو بل هي التي قرأته وحدثته وبينت له، ونورته، وأغنته، وباركته. . . إنها خصوصية القسمة الحاضرة التي قسمها اللَّه في الفاتحة خاصة كما في الحديث.

وليس هذا إلا طريق واحد من طرق قراءة الفاتحة. . . وما هذه الطريقة إلا مأخوذة من روح ما ذكرنا من النصوص لمن تأملها، وثمة طرق كثيرة لم يقيدها قلم كاتب إنما عاشتها أرواح وذهبت مع أرواحهم، أو نسوها في حياتهم. . . وطرق لا يعلمها إلا اللَّه.

الوصية الثانية: التخاطب بين الرب وعبده: إنه لا توجد سورة في القرآن العظيم كل خطابها كخطاب سورة الفاتحة، انظر لها وسترى. . . فالكلام كله إنما هو كلام رب العالمين. . . بينما موضوع الخطاب في الفاتحة إنما هو موضوع العبد. . . هذا هو وصف الحقيقة العظمى التي

يعجز القلم عن مجاوزة حد الوصف فيها. . . إن القلب لا يشعر إلا أن الكلام كلام اللَّه وحده لكنّ العبد لا يشعر كذلك إلا أن الموضوع موضوعه هو. . . فكما هي الاستحالة إلا أن يكون الكلام كلام اللَّه. . . فاستحالة كذلك أن يكون صاحب هذا الموضوع هو اللَّه. . . فأي روح تحتمل هذا الفهم. . . بل أي روح تملك الشرود وهي في هذه الجمعية والاندماج في المعاني. فلما اتحد هذان المعنيان في الفاتحة بين المصلي وربه. . . وقسَّم اللَّه الفاتحة بينه وبين عبده.

فالعبد لا يملك في هذه العظمة إلا أن يغيب عن نفسه في كلام ربه من شدة نور الفاتحة التي أوقدت في قلبه نور الإحسان. . . فذهب معها الروح كما لم يذهب مع شيء سواها.

تأمل ضمائر الجمع في الفاتحة وستجد أن **خطاب العبودية في الفاتحة يرفع بالشكل الجامعي الكلي**. . . فهي تضع العباد كلهم في صعيد واحد. . . موضوعهم واحد وهو الثناء على ربهم سبحانه، وبعده الدعاء بالاستقامة. . . فالقوي من هؤلاء المجتمعين يحمل الضعيف، والمقبول يشفع للمقصر، والمسيء يحمله المحسنون «وكلنا لك عبد وكلنا لك

فقير... محتاج... ضعيف... خائف... راج» هكذا نشيج القلب عند قراءة الفاتحة... ولو كان مصلياً لوحده في صحراء.

فلتغب أيها العبد عن ذاتك التي حجبتك عن ربك مراراً... ولتغب عن النظر في نفسك وفيما حولك... ولتذهب مع هذه السورة كل مذهب يقين وإحسان، ولترفع خطاب السبع المثاني إلى ربك على أنك صاحب موضوعها... فأنت فيها الحامد، وأنت المُثني على اللَّه، وأنت السائل وعظمة سؤالك كله لكونه كلام ربك سبحانه.

اقرأها وتقدس فإنك في الحال المقدس... اقرأها فأنت في هذه الفترة من صلاتك تبلغ ما لم تبلغه في حياتك كلها بل في صلاتك كلها... فإن الواد لم يكن مقدساً بصخره وشجرته وما فيه قبل وجود النور في الشجرة المباركة... ولم يكن موسى عليه السلام بعد دخوله الواد المقدس إلا مقدساً في تلك الفترة وفي ذلك المكان، فما كان صخر الواد وحبات رمله بأحق من موسى عليه السلام بذلك بعدما خلع نعليه ودخل... وأنت أيها العبد تقدست لأجل هذا اللقاء وفي فترته، وما ذلك إلا لأنك في قراءتك الفاتحة مارست سرَّ التقديس... فأدركه ولا يفتك، ألا تراك

وأنت في الفاتحة تقول كلامه سبحانه وإنما تقول مطلوبك. . . القول قوله والموضوع موضوعك. . . وموضوعك قد توحد في قوله سبحانه حتى أصبح هو سبحانه يجيبك بكلامه حاضراً عن كلامه الذي ترفعه إليه فوراً. . . فلتكن حاضراً بكليتك في هذا الحديث. . . قلباً وروحاً وعقلاً.

نعم؛ إنه حديث ومبادلة حديث ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، نعم إنك تتحدث مع ربك الذي قال في قصة موسى عليه السلام في الواد المقدس ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ فكيف وقد جاءت تسمية القرآن كله بالحديث بشكل صريح في ثمانية مواضع، بل كيف وقد ربط اللَّه الحديث بالمثاني فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

حُقَّ لعبدٍ لم يشعر بقسمة الحديث بين اللَّه وبينه أن لا يخشع في الفاتحة ولا يخشع في الصلاة كلها. . . فمن لا يعرف المفتاح أنى له أن يدخل؟!

الوصية الثالثة: الارتقاء في معارجها: إن في الفاتحة معارج حقيقة، أحسب أنه لو فتح لنا فيها استحضرناها عرجنا كلما قرأنا الفاتحة بإذن اللَّه وسوف ندرك في كل صلاة ما لم ندركه في الصلاة التي قبلها بإذن اللَّه...

لكن من فاتته معارج الفاتحة لم يعوضها شيء أبداً... ولا في كل ما أنزل اللَّه من كتاب ولأوضح ما ذكرت بمثال: إن المسلم وهو يدعو - مثلاً - بدعاء النبي ﷺ: «يا ولي الإسلام وأهله مسكني بالإسلام حتى ألقاك عليه» يخطر له الثبات على الإسلام حتى الموت، وهذا صحيح، بينما مسلم أخر يستحضر أن هذا الإسلام درجات عظيمة وأنه إنما يسئل اللَّه أن يكون في أعلاها فهو يطلب أن يمسكه الله بها كلها، فالإسلام هو الإسلام لكنه ليس درجة واحدة، هكذا هو الإيمان وشُعَبِه... هكذا هي درجات الشهادة في سبيل اللَّه... وهكذا كل شيء في هذا الدين، رسِّخ هذا الفهم في قلبك... واقرأ وانظر.

انظر لكل آية في الفاتحة ستجدها معارج... فلا تحسبن إذا ما رقيت مرةً عند قرائتها درجة أنك بلغت المنتهى... فثمة فوقك درجات لا

منتهى لها... عش هذه الدرجات كلما قُرِأَتْ عليك الفاتحة أو قرأتها... ومارس العروج كلما مررت بكلماتها العظيمة.

انظر لقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وانظر أي درجة بلغ صدق حمدك بين هؤلاء الحامدين... فارق في درجات الحامدين... وأعلى الحامدين رسول اللَّه ﷺ... أوليس اسمه محمد... فهو حامد وهو محمود.

إن إلقاء عبارة الحمد شيء... وتحقيق الحمد... وصدق الحمد... ورفع الحمد... شيء آخر؛ إنه ليس شيئاً واحداً، ولا الناس فيه درجة واحدة.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هنا الدرجات في معرفة ربنا سبحانه... إذا علم العبد أنه كلما ازداد معرفة باسمي اللَّه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كلما ازداد حظه وحقه منهما... علم أي أهمية للازدياد الدائم منهما.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كلما اقتربت حقيقة يوم الدين وأحداثه أمام البصيرة... وكلما ازداد وضوحها... كلما علت درجة صدق العبد حين يقرأ هذه الآية أو يستمع لها...

وبما أن ذلك اليوم لم يبتدئ بعد... فإن رقي العبد لن ينقطع حتى يراه.

ومع هذا فاذكر أنك الآن بين يدي مالك يوم الدين... فأي درجات تذلل وافتقار سوف تظهرها بين يديه... بل أي درجات خوف من الله ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ سوف تشتعل في قلبك... حتى تتقي غضبه في ذلك اليوم الذي لم يغضب قبله ولا بعده مثله أبداً؟!

ليس التذلل للَّه درجة واحدة... ولا الخوف منه سبحانه درجة واحدة... فَارْقَ في هذا درجات كلما قرأت ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فلعل هذه الآية تكون لك زلفاً مقبولة، ولعلها تكون حمايتك وشفاعتك لذلك اليوم...

ستعلم أي وقاية من أهوال ذلك اليوم دلَّك اللَّه على الوقاية منها حين دلَّك على مخاطبته سبحانه بوصفه مالك ذلك اليوم - نفسه -.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إنه أول خطاب مباشر لك مع اللَّه في الفاتحة كلها... فهو لا يحتمل إلا أن تقوله - كأنك تراه سبحانه -...

خطاب الحاضر للحاضر فتقول «إياك» مرتين متجاورتين.

كيف وأنت تقوله إذ أنت بين يديه في لقائه، وليست مجرد قراءة قرآن... وما أعظم القرآن.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فنحن نعبدك الآن ونستعينك للقادم، نعبدك في هذا المقام ونستعينك لمقام أعلى وأعلى وأعلى... فليس هذا المستوى هو منتهى طموحنا... إن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخبار عن حال واقع وأما ﴿نَسْتَعِينُ﴾ فهو طلب لقادم أعلى من الواقع.

إذا قلت: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فلتعلم أن الهداية درجات والمهتدين درجات، والمهديين درجات.

تذكر عظمة الصراط المستقيم وطوله، وانظر إلى سالكيه منذ أن خلق اللَّه الخلق حتى ساعتك، ثم انظر موقعك من مقدمته، ومقامك بين سالكيه هذا.

تذكر المخاطر التي تتجاذب الناس في كل شؤون الدين والدنيا وانظر إلى الهلكى على جنبتي الصراط، وعندها ستعرف حاجتك الدائمة إلى أن

يجيب اللَّه دعائك..

إذا لم تستحضر أهمية هذا الدعاء فلتعلم أن كل ما سبقه في سورة الحمد كان وسيلة لاستجابة هذا الدعاء... وتذكر أن ما بعده من السورة إنما هو مزيد بيان لمن سار على الصراط المستقيم، أو تنكبه وعادى أهله.

وأنا بعد هذا أرجو القارئ أن يعيد قراءة الفاتحة ويعيدها كثيراً كثيراً..

فإنها كنز والكنز لا يعثر عليه من أول مرة... وإنها أحق بالتدبر، والتدبر لا يتوافق مع قرائتها حصراً في الصلاة... كيف وهي التي لم ينزل اللَّه مثلها على نبي أبداً... وكلما قرأها المسلم في صلاته فليحرص على أن يرقى... ويرقى... ويتقرب ويقترب... فلعله يكون من اسم «الفاتحة» فتح جديد ومتجدد ومتنوع، وقد صح في تسميته «الفاتحة» بالصلاة.

وليحذر كل واحد أن يجعل ما ذكرت من أفكار إطار للفاتحة، فليس للفاتحة إطار ولا لأحدٍ بها طاقة ولا إحاطة...

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ من حسب أن الصراط المستقيم درجة واحدة... لم تطمح نفسه إلى درجة أخرى لأنها لا وجود لها كما يحسب!

إذا قلت: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فلتعلم أن الهداية درجات والمهتدين درجات، والمهديين درجات.

تذكر عظمة الصراط المستقيم وطوله وانظر موقعك من مقدمته.

تذكر المخاطر التي تتجاذب الناس في كل شؤون الدين والدنيا وانظر في حاجتك الدائمة إلى أن يجيب الله دعائك...

إذا لم تستحضر أهمية هذا الدعاء فلتعلم أن كل ما سبقه في سورة الحمد كان وسيلة لاستجابة هذا الدعاء... وتذكر أن ما بعده من السورة إنما هو مزيد بيان لمن سار على الصراط المستقيم، ومن تنكبه وعادى أهله.

وأنا بعد هذا أرجو القارئ أن يعيد قراءة الفاتحة ويعيدها كثيراً كثيراً.. فإنها كنز والكنز لا يعثر عليه من أول مرة... وإنها أحق بالتدبر، والتدبر لا يتوافق مع قراءتها حصراً في الصلاة... كيف وهي التي لم ينزل اللّه مثلها على نبي أبداً... وكلما قرأها المسلم في صلاته فليتذكر أين درجته في كل مقام... فالفاتحة مقامات وأهلها مقامات... والفاتحة أعظم مما ذكرت... وليحذر كل واحد أن يجعل ما ذكرت من أفكار إطاراً

للفاتحة، فليس للفاتحة إطار ولا لأحدٍ بها طاقة ولا إحاطة... وما قولنا هذا إلا زلفى بين يديها، وفكرة خادمة، وكلمة ذليلة متذللة... علَّ من يقرؤها يحلق في معاني مثاني الفاتحة، أو يصعد معارج معانيها فيبلغ كل مرة مقاماً لم يبلغه من قبل...

وإلا فإني واللَّه قد أكثرت الشطب في الكتابة عن الفاتحة خاصة... عارفاً وغير عارف، وما أبقيت هذا إلا وأنا متردِّدٌ في شطبه...

الوصية الرابعة: إنها ذروة المثاني[1]: إن «معاني المثاني» من الأسرار العظمى في هذه السورة خاصة وفي القرآن عامة بل في كل ما جاء به الوحي كتاباً وسنة...

يقول اللَّه سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]

(١) أرجو أن لا يملَّ القارئ من طول هذه الوصية... فما كانت الإطالة إلا لبيان أمر عظيم لم يأخذ حظه من قبل من التطبيق في المعايشة، والمعايشة الروحية والإيمانية، ولم يظهر أثره في الخشوع في الصلاة...

وقد ذكر ابن كثير العديد من الأقوال في معنى المتشابه والمثاني ثم روى عن حبر القرآن رضي الله عنه فقال: «وقال سعيد بن جبرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «مثاني» قال: القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض» ثم ذكر ابن كثير ما يؤيد ذلك، وهو أشبه ما يكون شرحاً لكلام الحبر رضي الله عنه فقال: «وقال بعض العلماء: وُيرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ في معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشيء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩]، إلى أن قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني، أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ

﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران :٧]، ذاك معنى آخر»[١].

وسر هذا أن اللَّه سبحانه خلق النفس مبنية على المثاني وأنزل الكتاب العزيز مثاني... فكان هو سر حياتها وسر صلاحها ولا صلاح لها إلا به... وهكذا يكون التطابق الأعجب، ولو أردنا البسط أكثر لرأينا المثاني في القرآن كله في الأوامر والنواهي، في الترغيب والترهيب، في تفاصيل ذلك، في أقصر الأذكار وفي أطولها... **فهذه كلمة «سبحانه اللَّه وبحمده سبحان اللَّه العظيم»** تأمل هذين الشطرين ستجد أن «**سبحان اللَّه وبحمده**» يغلب عليها الحمد ومشتقاته الجميلة المحمودة؛ من تذكر النعم والفضل وما إلى ذلك، ويذهب العقل معها في جانب النعمة والرحمة والفضل والشكر كل مذهب ويتلفت أثناء ذكره فيجد شهادة في كل ما يراه من حوله وما في نفسه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾، أما «سبحان اللَّه العظيم» فهي المجال الأرحب للتعظيم وحيث يجد الفكر آثار اسم اللَّه «العظيم» سبحانه من مهابة وإجلال في كل شيء... في نفسه وفيما حوله... فإذا جمعت شطري هذا الذكر وجدت الوصف الجامع لهذا الذكر في كلمة واحدة، إنها «مثاني» وهكذا تُصْنع النفس وهي تردد هذا

(١) تفسير ابن كثير(٧/ ٩٤)، طبعة دار طيبة.

الذكر صناعة في طرفيها وجناحيها اللذان بهما تطير وتحلق، بالترغيب والترهيب، بالبأساء والضراء، حتى تعود النفس إلى الحق كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

هذه سنة اللَّه في تربية خلقه، وهي من أسراره العظمى في قرآنه... وفي الفاتحة أظهر ما تكون.

إن المثاني في كلام اللَّه تصنع في النفس صنعاً عجيباً، إنها تمد النفس مداً ثم تقبضها قبضاً... هي التي تبسطها بسطاً ثم تطويها طياً، فتعالجها وتطهرها وتزكيها في قبضها كما في بسطها، في نشرها كما في طيها، في منشطها كما في مكرهها، في فقرها كما في غناها، في جهادها كما في سلمها، في قوتها كما في ضعفها، في أمنها كما في خوفها، في جمعتها كما في وحشتها... واذهب معدداً كل حالات النفس الإنسانية... إنها ليست آيات تلقى... إنما هي حياة تصنع من خلال المثاني...

فإذا ما أعدنا النظر ثانية في «الكلمتان الحبيبتان إلى الرحمن الخفيفتان على اللسان الثقيلتان في الميزان» وجدنا ما هو أقصر منها في الذكر، إنه

الشطر الأول «**سبحان اللَّه وبحمده**» فقط، فإذا رددتها لوحدها مددت فكرك فيها مداً، وإن أسرع لسانك وخطفها خطفاً؛ ستجد أنهما كلمتان وليست كلمة واحدة، وأنهما معنيان وليس معنى واحداً، ولهما أثران متقابلان وليس أثراً واحداً، فالأولى «سبحان اللَّه» وهذه رمز التعظيم كله فهو اللَّه رب العالمين والتسبيح والتمجيد له سبحانه، بينما الكلمة الثانية فقد جاءت معطوفة عليها منسوبة إليها وهي «وبحمده» وهذا رمز النعم والشكر والإفضال والخير. . . فهما إذاً مثاني رغم قصرهما ولا يظهر لنا أنها كلمتان.

هكذا هي الأذكار، وستجد أن المثاني ليس في فهمك وفكرك وإنما في صناعة حياتك وسلوكك مع ربك قبل الخلق، وحين تملك هذه القاعدة العامة العظيمة تتفتح لك المعاني، ويتطابق المبعثر منها، وتفهرس الحياة فهرسة جديدة. . . فإن لم تتشرب هذا المعنى بَعْدُ جيداً فتأمل الدعاء الذي هو قمة المثاني، الدعاء الذي أمرنا النبي ﷺ من الإلظاظ به[١]، وهو «يا ذا الجلال والإكرام»[٢] إنه من العمق والوضوح في معنى المثاني بحيث لا يوصف، وتأمل كل ما ورد في هذا. . . تأمل سورة الرحمن وانظر في عمق المثاني. . .

(١) الإلحاح.
(٢) رواه الترمذي (٣٥٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٥٢٥).

هكذا المثاني في شرع اللَّه كله. . . هكذا خطاب اللَّه لنا سبحانه، هكذا هو القرآن الكريم كله. . . فإذا جئت بعد هذا إلى مركز المثاني الذي لا نظير له في كل ما أنزل اللَّه سبحانه فسوف تجده فاتحة الكتاب. . .

هذه هي الصفة التي لا ينبغي أن تغيب عنك وأنت تقرأ الفاتحة وتسمعها في صلاتك خاصة فقد جعل الله قسمتها مثاني بينه سبحانه وبين عبده بصريح الحديث. . .

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «قال اللَّه تعالى: قسمت الصّلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد للَّه ربّ العالمين، قال اللَّه تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرّحمن الرّحيم، قال: اللَّه تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدّين. قال: مجّدني عبدي، (وقال مرّة: فوّض إليّ عبدي)، فإذا قال: إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصّراط المستقيم صراط الّذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[1].

ومع هذا فأنا أقول: إن فهم هذه الحقيقة شيء ومعايشتها شيء آخر،

(١) رواه مسلم (٣٩٥).

وإن معايشتها لَدَرجات ومقامات. . . ومبنى ذلك على اليقين في الفهم والإحسان في الإيمان.

لا يشترط أبداً هنا أن تحسن التعبير عما تدرك أثناء ما سمعت من المثاني وخصوصاً فتوح اللَّه عليك في الصلاة، إنما الأهم هو أن تدرك، فإذا أدركت فانطلق ولسوف تجد أن الفاتحة صنعت صلاتك وصبغت حياتك، فإذا بصلاتك كلها مثان، القرآن الذي سوف تقرأه مثان، تسبيحات صلاتك بذاتها مثان، وهي مع ما قبلها وما بعدها مثان، بل كل تسبيحة مثان «**سبحان ربي العظيم**» «**سبحان ربي الأعلى**»؛ تأمل فيها ستجدها كلمة واحدة لكنهما مثان بمعنيهما، فهي تسبيحها التعظيم والمهابة أثناء الركوع، وكذا أثناء السجود، ولكن يكفي أن يكون في وسط عالم التعظيم والجلال ذاك كلمة «**ربي**» فلا تسبح إلا ربك فتقول «**سبحان ربي**»، إن هذا اليقين ينمو سريعاً ويبقى راسخاً ويعلو شامخاً باحضار هذا الفهم كلما ذكرت اللَّه سبحانه. . . وكلما قرأت القرآن. . .

مارس ذلك تجده، بل تجد نفسك ربما لأول مرة في هذا الميزان الذي ليس مثله ميزان. .

هات أي آية وانظر إلى المثاني. . . انظر مثلًا إلى قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ

ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ تأملها ثانية، وانظر إلى المثاني كيف تجلت أمام عينيك. . . ﴿تَبَارَكَ﴾ ثم ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

«الموت» ثم «الحياة»، وبعدها «ليبلوكم» ثم «أحسن عملاً»، والمثاني كالشمس في قوله سبحانه: «العزيز الغفور».

أرأيت لم قلت لك إنني لا أقدر - على بيان معاني الفاتحة. . . إن بيانها فوق البيان، وإن نورها لا يكشف الأشياء للأبصار فحسب وإنما يكشف الأبصار. . . ويدرك الأبصار ولا تدركه. . . وكلما ازداد إدراك العبد للمثاني أدركه جلال المعاني لازدياده قرباً من اللَّه سبحانه وتعالى. . . لأن **الجلال والإكرام** هو أشرف المثاني وأعلاها. . . وهما جماع الأسماء الحسنى واللَّه سبحانه يقول: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ويقول: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

من هنا نعلم حقيقة عظمى هي أن «**ذكر اللَّه**» الذي كله مثان يحمل صفة صاحبه «ذي الجلال والإكرام»، وأن هذا الكلام القرآن يحمل صفة اللَّه لأنه كلامه سبحانه، وأن الفاتحة هي مركز ذلك كله، ومرجعه، وسره،

وسرّ فهم هذا السر العظيم.

وإذا رجعت إلى الواد المقدس وجدت المثاني متجلية في خطاب الله لموسى عليه السلام وأنا أذكرها وأتركها لك لتدركها قال سبحانه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه].

لكن إن سألتني: أين الفاتحة في الواد المقدس؟

قلت: أنسيت أن الفاتحة لم تنزل في التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور، ولم ينزل على السابقين أبداً مثلها؟

ولكن ما أعظم المثاني في خطاب اللَّه العظيم لموسىٰ في الواد المقدس.

وأخيراً أعود لأذكر بأن هذه طريقة واحدة وليست هي كل الطرق لقراءة فاتحة الكتاب خاصة.

واللَّه إني لأحسب أن من قرأ الفاتحة بمعرفة ما يقال في معاني كلماتها وآياتها من مجرد تفسير ألفاظها وما إلى ذلك فإنه لن يقرأها إلا من وراء

حجاب. . . وسوف يموت وربما لم يدرك المراد منها والمراد منه.

وأنا لا أريد الآن بيان معاني الفاتحة بعدما أصبحت عندك القاعدة التي تعين على الإبحار في معانيها بإذن اللَّه. . . فإنه بقدر ما كانت المسألة غامضة قبل هذه القاعدة بقدر ما أصبحت متجلية وذلك بجلاء معاني المثاني.

واللَّه إني لأجد نفسي راغبة في التوقف كل مرة غير قادر على ذلك لترابط هذه المثاني في كل شيء حتى في تربية اللَّه لأوليائه بل لأنبيائه ورسله فضلًا عن غيرهم، ويكفيك أن تقرأ أول خمس آيات أنزلت على النبي ﷺ في غار حراء.

مستغفراً اللَّه عند هذا التوقف، معتذراً للقارئ عن التوقف وعن الإطالة معاً.

❊ ❊ ❊

العامل الخامس: قبس من حركات الصلاة

كم يفوت المصلي من الخشوع لعدم فهمه هيئات صلاته وحركاتها وأوضاعها. . . وما تحمله من عبودية للَّه رب العالمين؟!

بل إن بعض الخاشعين في ركن من الأركان يقطع خشوعه إذا تحرَّكَ حركة من حركات الصلاة المشروعة. . . ! علما بأن حركات الصلاة تزيد الخشوع خشوعاً. . . لأنها خطوات في معراج التقرب إلى اللَّه. . فهي خطوات في المسير قرباً إلى اللَّه. . ولذا كان آخرها أقربها، فكان أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. . أليست هي حركات المصطفى بين يدي ربه - سبحانه -؟! أليست حركات صلاتنا هي الهيئات التي علمها جبريل عليه السلام رسول اللَّه ﷺ؟! إذاً فهي الهيئات التي أحبها اللَّه - سبحانه - فشرعها في هذه الصلاة.

فالحمد للَّه أنه لم يبقنا على هيئة واحدة. . . قائمين أو راكعين أو ساجدين أو جالسين!

فأصبحنا نتعبده سبحانه. . . نتذلل إليه في كل هيئاتنا. . نُرِيهِ تَقَلُّبَنَا في

عبوديته بين يديه. . . نُرِيهِ توسلنا في اختلاف أوضاعنا رجاء رحمته. . . فحركاتنا في الحياة هي هيئاتنا في الصلاة إلا أنها أصبحت في هذه الصلاة قربات نتزلف بها إلى اللَّه - سبحانه وتعالى، مصحوبة بأذكار تتفجر من الاستقرار في كل ركن، ويتفجر خشوعها من حركة الانتقال من الركن إلى الركن الآخر المنتقل إليه بإذن اللَّه.

تأمل هذا القيام والرأس مستقيم إلى السماء والنظر منصب إلى السجود. . . هذا الركوع والظهر في غاية الانحناء والوجه إلى الأرض. . هذا الاعتدال ممزوج بالحمد والرأس إلى أعلى والوجه إلى موضع السجود. . هذا السجود العظيم؛ والأَعْظُمُ السبعة فينا كلها ساجدة لربها - سبحانه - وأولها الرأس في الأسفل، والوجه والأنف ملتصق بالأرض، وبينما القلب هناك في سجوده فإن القلب يناجي ربه واللسان يردد «سبحان ربي الأعلى».

فيالهذه الصلاة؛ ما أشملها لحركات الحياة وحالاتها. .؟!

ويا لهذه الحركات العبادية؛ ما أفصح عبوديتها وأَبْيَنَ معانيها. .؟!

إنها هداية للناظرين، وتودد وتعبد وتزلف للَّه رب العالمين.

أيها المصلي: من اليوم فتأمل، فإنك ستجد أن هيئات صلاتك نسيج عجيب قد حَبَكَ اللَّه - سبحانه - بعلمه وحكمته صنعه وشكله.. فإياك أن تغفل من كثرة تَكْرَارِهَا إذ أنت في وسطها... فالسماء رغم كثرة ما فيها من معجزات بل نجوم وكواكب سيارة، إلا أن الذي خلقها وصورها وانتظمها وحبكها حبكاً هو اللَّه - سبحانه -... أليس اللَّه - سبحانه - هو الذي قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾؟

تأمل وستجد أن مَعْقِدَ الحبكة العظيمة إنما هو في حركة الانتقال ما بين الركن والركن.. فما أكثر من يغفل عن هذا المعقد، وتأتيه الغفلة في أثناء تلك الحركة.

إنها الحركة المصحوبة برفع اليدين تعظيما واقتداءً مقترنة بأعظم ذكر وهو تكبيرة الإحرام «اللَّه أكبر» هو ذكر التحول الجديد من ركن إلى ركن، حيث يَستحب بعض أهل العلم أن يمد العبد صوته بهذا التكبير حتى يستغرق الحركة من أولها حتى منتهاها..

وإن شئت قلت من أول حركة الانتقال حتى بلوغ الركن الآخر وأنت تهتف باللَّه مكبراً ومعظماً.. فكم هو التكبير عظيم حتى يكون هو المختار

للحركة في الصلاة بين يدي اللَّه؟! وكم هي حركة الانتقال بين يدي اللَّه عظيمة حتى يشرع لها التكبير؟! فإذا أخرج القلب هذه التكبيرة العظيمة بحركة الانتقال عرف أنها الحركة العظيمة فزادته خشوعاً على خشوعه. . فاللَّهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.

* * *

العامل السادس: قبس من موضع النظر

الحقيقة أن القلب يتبع النظر، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] قال: «كانوا إذا قاموا في الصّلاة، أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. وعلموا أنّ اللَّه يقبل عليهم فلا يلتفتون يميناً ولا شمالًا».

فتأمل موضع نظرك حال قيامك بين يدي اللَّه - سبحانه -، إنه موضع السجود الذي لا يتخطاه البصر إلى سواه طوال صلاتك إلا في تشهُّدِك - كما سيأتي سر ذلك معنا - بإذن اللَّه - فهل فهمنا الإشارة جيداً. . . ؟ وهل عرفنا أن قيامنا هذا قيام حقيقي بين يدي اللَّه سبحانه وتعالى. . . ؟ فإن المهابة التي ألزمتنا التزام النظر إلى موضع السجود إنما هي مهابة من اللَّه الذي نلاقيه حال الصلاة، ولأجلها ألزمنا العين النظر إلى موضع السجود، ولأجل هذه المهابة حرم على النظر ضد هذا وهو النظر إلى أعلى حال الصلاة، كما قال النبي ﷺ: «لينتهينَّ أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة، أو لا ترجعُ إليهم»[(١)].

(١) رواه مسلم (٤٢٨).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ، قال: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السّماء في صلاتهم؟ فاشتدّ قوله في ذلك حتّى قال: لينتهنّ عن ذلك أو لتخطفنّ أبصارهم»[١]، ولأجل المهابة والإجلال قبح على هذا الواقف أن يلتفت عن موضع السجود يميناً ويساراً ونحن في الصلاة، فلقد سئل النبي ﷺ عن الالتفات، فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد»[٢]، وإلا فلو كان الأمر لمجرد الخشوع أو الذكر أو حتى كوننا نقرأ كلام اللَّه لما امتنع النظر إلى أعلى... فالنظر إلى أعلى يكون أحياناً سبباً للتفكر والتدبر والخشوع... ولو لم يكن كذلك لم يكن من هدي النبي ﷺ إذا استقيظ من نومه نظر في السماء، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: بتّ عند خالتي ميمونة فتحدّث رسول اللَّه ﷺ مع أهله ساعة ثمّ رقد، فلمّا كان ثلث اللّيل الآخر قعد فنظر إلى السّماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثمّ قام فتوضّأ واستنّ فصلّى إحدى عشرة ركعة ثمّ أذّن بلال فصلّى ركعتين ثمّ خرج فصلّى الصّبح[٣].

(١) رواه البخاري (٧١٧).
(٢) رواه البخاري (٧١٨).
(٣) متفق عليه. رواه البخاري (٤٢٩٣)، ومسلم (٧٦٣).

إذاً فهو اللقاء الحقيقي المباشر بربنا - سبحانه -... وهو القيام الحقيقي بين يديه - سبحانه -، فهل أدركنا - الآن - الحقيقة؟!

أيها القائم بين يدي اللَّه: إن هذا النظر ليس مجرد طأطأة رأس إلى موضع السجود، إنه فيض المعاني يتفجر بمعاني الإجلال لربنا حال لقائه ذي الجلال والإكرام، والخشية منه، والخشوع له - سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

إنك - أيها المصلي - وأنت في وقوفك ورأسك في أبعد نقطة منك إلى الأرض إنما تتطلع لأعلى مقام.. وأعلى مقام تبلغه هنا هو الأقرب من اللَّه.. والأقرب من اللَّه وأنت في هذا الحال إنما هو عند موضع سجودك في صلاتك... فليكن رأسك ناظراً إلى الأسفل، وليكن قلبك معلقاً باللَّه العلي الأعلى... وليكن الموضع الأعلى في حالك هو موضع سجدتك، ولذا لن يناسبه إلا أن تقول: «**سبحان ربي الأعلى**»، ألم يقل النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه الدعاء»[(١)]؟!

ولما كانت النقطة الأقرب هي السجود وهي بالضرورة المقام الأعلى

(١) رواه مسلم (٤٨٢).

فإنه لم يناسبها الانتقال من حال قيامك إليها إلا هويًّا يهويه البدن إلى مقامها، وعروجا يعرج القلب به إليه سبحانه، فعن أبي فاطمة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يا أبا فاطمة أكثر من السجود، فإنه ليس من رجل يسجد للَّه سجدة إلا رفعه اللَّه بها درجة»(١).

فإذا بلغ هناك... لم يكن المناسب لمن بلغ المنزل أن يستعجل بل يطيل المكث في السجود، فقد قال المصطفى ﷺ: «فأكثروا فيه من الدعاء» وسيأتي تفصيل هذا بإذن اللَّه عند بلوغنا السجود.

يقول قائل: ما دام أمر السجود هكذا فلماذا لا نستعجل بالهوي إليه ولا نطيل القيام؟!

والجواب: أيناسب من يُكَلِّمُهُ ربه إلا أن يتلذذ لذة ليس مثلها لذة؟

أيناسب من يكلمه ربه أن يستعجل ويقطع أو ينصرف سريعاً؟!

ثم ماذا فعل موسى عليه السلام عند ذلك اللقاء المقدس إلا القيام... لأنه الكلام، وكان يستزيد من سماع الكلام ومن التكلم.

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٢٨)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

ابق أيها المصلي في قيامك وإن طال النظر إلى السجود، فإنك الآن في مقام الكلام الذي لا يليق به عند اللقاء إلا القيام، وليس بعد مقام الكلام مع القيام للّه من مقام. . . فإن للقلب لذته، وللسان لذته، وللأذن لذتها، وللرجلين لذتهما، وللقدمين لذتهما وإن طال القيام حتى تورمتا. . .

فأي عيش مثل عيشك أيها الواقف بين يدي ربه؟

* * *

العامل السابع: قبس الخشوع من هيئة الركوع

كثيرون هم أولئك الذين يخطفون الركوع خطفا! وكأنه معبر موصل ما بين القيام والسجود ليس إلا!

قليلون هم أولئك الذين يخشعون في الركوع كما القيام والسجود!

أيها المصلي: أرأيت رسول اللَّه ﷺ يطيل شيئا قريباً من القيام مثلما يطيل الركوع؟ فَلِمَ كان هذا المكث والقرار للركوع خاصة؟ أكان مزيد تطويله ﷺ بغير مزيد خشوع وتذلل وخضوع؟!

والآن فلنتساءل: أي ركن من الأركان جاور كلام اللَّه سبحانه مباشرة قبل الركوع؟

أفليس من حق الركوع أن يطول ويطول... إذ أثر الكلام الإلهي حال القيام سرى إلى الركوع أول ما سرى، وكان لبركة الجوار هذا الأثر الذي ترى؟!

إن الركوع هو الشاهد الظاهر القاطع على أنك - أيها المصلي - الآن

في لقاء مع اللَّه، فأي شاهد في عالم البشر نعرفه أكبر دِلالة على التعظيم عند المثول بين يدي من يعظمونه مثل انحناء الناس في حضرتهِ ولو بخفض رؤوسهم؟!

إذاً أفيكون انحناؤك في الصلاة دون حضور من انحنيت لأجله. . . بينما كل انحناءات الدنيا إنما تكون مع الحضور؟!

فليهنك -يا قارئ القرآن- بعد ما قمت للَّه تعالى هذه القومة بأن يأذن لك أن تركع له سبحانه. .

هنيئاً لك بأن جعل ركوعك شهادة لقاء اللَّه في صلاتك وزن لقاء حقيقي كأنه عين اليقين. . فكأنك بركوعك هذا قد كشفت الحجاب عن اللقاء لولا أن اللَّه قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، - سبحانه وتعالى علواً كبيراً. . .

واللَّه إن شأن التعظيم عند هذا الركوع لعظيم. . . ! عظيم

عظيم أن يُكلِّم أحدنا ربَه بكلامه هو سبحانه. . . عظيم أن يَسْمَع اللَّه من عبده كلامه - سبحانه -، عظيم أن يجيبه اللَّه في فاتحة الكتاب بين الآية والآية، عظيم أن يرفعك اللَّه سبحانه حين يعطيك الدليل على أنه

سبحانه حاضر كما يليق بجلاله حيث يشرع لك الآن تحديداً لا أن تَحنيَ رأسك ورقبتك انحناءة سريعة. . . . إنما تركع ركوعاً كاملًا للرأس والظهر واليدين وما استقلت به القدمين. . وتطيل ما شاء اللَّه لك أن تطيل. . . ولذا كان الأليق بالعبد في مقابل هذه العظمة الإلهية الحاضرة أن يتحول العبد من قيامه إلى ركوع البدن الكامل الشامل، وأن يكون الذكر لهذا الركوع العظيم هو: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه صلّى مع رسول اللَّه ﷺ ذات ليلة، فسمعه حين كبّر، قال: «اللَّه أكبر ذا الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة»، وكان يقول في ركوعه: «سبحان ربّي العظيم»، وإذا رفع رأسه من الرّكوع قال: «لربّي الحمد، لربّي الحمد»، وفي سجوده: «سبحان ربّي الأعلى»، وبين السّجدتين: «ربّ اغفر لي، ربّ اغفر لي»، وكان قيامه، وركوعه، وإذا رفع رأسه من الرّكوع، وسجوده، وما بين السّجدتين قريبا من السّواء[١].

قال المصطفى ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»[٢]، وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «حين أنزلت فسبح باسم ربك العظيم» قال النبي ﷺ:

(١) رواه النسائي (١٠٦٩)، وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (٤٧٩).

«اجعلوها في ركوعكم»، وحين أنزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال النبي ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»(١).

هكذا وافق المنطق القلب، ووافق الخشوع المعنى، إذ رأينا أن أنسب ما يكون التعظيم والتسبيح إنما هو في حال الركوع، فهو عنوان حضورك لقاء ربك العظيم سبحانه.

فهل يُلام عبد إذا أطال وذهب قلبه مردداً مسبحاً ربه معظماً والحال من التذلل والخضوع مع كل تسبيح وتعظيم في مزيد ومزيد... وهو إذ ذاك عند اللَّه في مزيد عروج ومزيد، ولذا قال المصطفى ﷺ في السجود: «فاكثروا فيه من الدعاء»، بينما لم يثبت الدعاء في الركوع إلا قليلًا، ولم تكن وصيتهُ ﷺ بكثرة الدعاء فيه إنما الوصية بالتعظيم فقال: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»... وليس هذا هو السر إنما هذا هو الدليل فقط أما السر في تطويل الركوع فهو - واللَّه أعلم - هو اسم اللَّه (العظيم)، فإن العظيم هو وصف لكل اسم من أسماء اللَّه سبحانه... ولذا فأنت ذاهب مع أسماء اللَّه كلها حين تكون في الركوع، فإن وصف (العظيم) يستدعي

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٥٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده محتمل للتحسين.

اضطراراً كل صفاته - سبحانه -، فهو العظيم في رحمته، العظيم في قوته، العظيم في ملكه، العظيم في قهره ونقمته وجبروته، بينما اسمه (الأعلى) ليس كذلك وكل أسماء اللَّه - سبحانه وتعالى - عظيمة، ثم إن هذا التطويل جاء إثر مجاورة كلام اللَّه والكلام مع اللَّه، في حال القيام بين يديه. . . فناسب أن تسري سبحات التعظيم والجلال على حاله فيطيل الركوع، ويطيل ما شاء اللَّه له أن يطيل.

وأي شاهد على حضور اللَّه مثل شاهد الركوع، بل أي شاهد لم يُستَدعَ لإحضار قلبك مقام التعظيم هذا؟!

فيا أيها القلب: تعال اليوم وتشرَّب التعظيم وعظِّم. . . تعال وتفجر بالخشوع وتَعلَّم، فاذكر اللَّه بأسمائه الحسنى إذ أنت بين يديه تركع، وهو - سبحانه العظيم - ناظر إلى مدى تعظيم قلبك له في ركوعك. . .

اذهب أيها القلب في سبحات التعظيم. . . فحريٌّ بهذا القلب والجوارح عموماً وذاك الظهر المنحني واليدين الماسكتين بالركبتين أن تنسى شكوى التطويل. . . في حق من ركعت له وهو اللَّه - سبحانه - العظيم.

❊ ❊ ❊

العامل الثامن: قبس من الحمد عند الاعتدال

لو كان ثمة موضع في الصلاة والحياة يكون فيه الحمد عند اللَّه أسمع لكان هو هذا المقام. . . كيف واللَّه يذكر المصلي كلما رفع من الركوع أن احمدني الآن. . . والآن أنا أسمعك: «سمع الله لمن حمده». . . وهل من قائل سراً أو جهراً لا يسمعهُ اللَّه؟ لكن للحمد هنا شأن آخر. . . فليكن حمدك شيئاً آخر.

هلا تساءلت: لم الحمد في الاعتدال من دون كل الأركان؟ لم لم يكن التكبير بدل التحميد؟ وإن شئت قلت: أين النعمة الخاصة بالرفع من الركوع الذي جعله مستوجباً الحمد من دون بقيه الأركان، وجاءت في هذا المقام بدلًا عن التكبير - وكل الأركان نعمة -؟.

إن أردتَ الجواب فتذكر أيها المعتدل من ركوعه أنك حمدت اللَّه في الفاتحة فقلت أول الصلاة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لكنك لم تسمع جواباً بأُذنِك لذاك الحمد؛ أَقُبِلَ أم لم يُقْبَلْ؟ فكان هنا الجواب بقولك أنت أو قول إمامك تسمعه بأذنك: «سمع اللَّه لمن حمده»، وما هذا الخبر في

حقيقة الأمر من عندك أو من عند إمامك. . . إنما هو الإلقاء والإخبار من اللَّه، وإلا فمن يجرؤ أن يخبر بهذا الخبر. . . **أرأيت عظمة الربط والحكمة** ما بين أول الصلاة وأول الاعتدال، وما بين أول الوقوف الأول وأول الوقوف الثاني. . . بل الحبك أكبر إذا نظرت إلى الجواب المباشر بعد سمع اللَّه لمن حمده: «ربنا لك الحمد». . . فأصبح العبد في هذا الحال بين أفضل حَمْدين؛ فأي حمد أفضل من الفاتحة. . وأي المحامد أفضل من حمدٍ بعد الركوع، حمداً يختاره اللَّه - سبحانه - لنفسه ليقوله كل مصلٍّ عندما يرفع رأسه ويعدل قامته بين يديه - سبحانه؟!

أيها المعتدل من ركوعه: ألا ينبغي أن يخالط حمدك للَّه قلبك فترفع الحمد إليه كما ينبغي. . . ليكون استشعاراً حاضراً، وشكراً غامراً. . . إنك لن تستطيع أن تَصْدق في حمدك ما لم تستشعر هذه النعمة العظيمة الخاصة.

هذا أولًا أما ثاني النعم فنعمة الركوع ذاته. . . فإن الركوع والحركة إلى الركوع هو حركة القِوام الأولى للصلب مع الرأس واليدين ونصفكُ الأعلى كاملًا للَّه رب العالمين، وما كانت هذه الحركة بين يدي اللَّه - سبحانه - إلا اتباعاً وسمعاً وطاعةً، ثم تجاوباً لما حلَّ في القلب من

التعظيم لكلام اللَّه العظيم.

وما كانت حركة الاعتدال من الركوع إلا عودة للقيام بين يدي اللَّه ثانية، ولقد كانت الفاتحة حمداً وتعظيماً، وكان الركوع والاعتدال تعظيماً وحمداً... فالفاتحة ابتدأت بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم كان التعظيم بقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم كانت الرحمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وبعدها جاء التعظيم ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

وأما في الركوع فهو في ذاته تعظيم، وهو في ذكره تعظيم «سبحان ربي العظيم»، ثم كان الاعتدال منه حمداً يعقب التعظيم... فكان هذا هو الكمال بل هو إحاطة فضل اللَّه - تعالى - العبد من كل جهاته... وهو من إحاطة الفاتحة بباطن المصلي وظاهر حركاته... فأنى لعبد أن يبلغ هذا الحد بذاته وبعمله لولا أن اللَّه سبحانه مَنَّ عليه بهذا الحمد العظيم.

إن الخشوع في الاعتدال من الركوع خشوع مِنْ عظم الحمد، وخشوع بصبغة الحمد... خشوع الموقف من عظيم ما غَلَب على العبد حتى قال بعض الصحابة ما قال من صيغ الحمد التي خرجت من قلوبهم نتيجة اضطرارية فاضت على ألسنتهم لعظيم صفاء قلوبهم، وعظيم المعرفة

المبهرة لهم إذ هم في ذلك الحال. . . فأعجزت الملائكة الكرام الكاتبين عن كتابة أجرها كما روى ذلك رفاعة بن رافع الزرقي، قال: «كنا يوما نصلي وراء النبي ﷺ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: سمع اللَّه لمن حمده»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف، قال: «من المتكلم» قال: أنا، قال: «رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول»[1]، ومضى هذا التحميد منذ ذلك الموقف العظيم سنة جارية يتنافس الناس على قولها.

أيها المصلي: نوِّع الحمد مما ورد في ذلك، فإنك لا تدري أيها أعظم نفعا لك.

نوِّع (حمد اللَّه) مما ثبت عن رسول اللَّه ﷺ قولًا أوفعلًا أوتقريراً، ولا تستكن لذكر واحد، فكل ذكر يتفجر بأنواع من المعاني جديدة، ويتجاوب له القلب بطرق أخرى فريدة. . . فحرك القلب للَّه وارفع له الحمد من كل أودية الفؤاد وشعابه، وارفع الحمد للَّه وكن لعظيم حمدك آية عند ملائكة اللَّه من آياته. . .

(١) رواه البخاري (٧٦٦).

فلا ترضَ أن تكون حامد اللسان غافل القلب. . .

نوِّع الحمد. . . فلقد رفع رسول اللَّه ﷺ إلى ربه كل حمد من أنواع الحمد هذه التي صحت عنه وسُمِعت منه، أو سمعها وأقرها ﷺ في هذا المقام الكريم على وجه الخصوص.

❊ ❊ ❊

العامل التاسع: قبس من العروج إلى السجود

سبحان من طبع القلوب المؤمنة على محبة السجود له - سبحانه.

سبحان من جعل الإطالة في السجود أخف الأعمال الحبيبة على المؤمنين وألطفها مروراً.. فلو ترك الأمر لذوق الساجدين لتخلفوا في السجود من دون الأركان عن أئمتهم كثيراً، ومع هذا فمن المعتاد أن تجد في صف الصلاة متخلفاً مستغرقاً في سجوده، مستقراً طويلًا بعد رفع إمامه منه... وأهلًا عن اتباع إمامه، إنه رباط عجيب وتلذذ فريد.

أيها المصلي: هل كان مَصبُّ نظرك وأنت قائم للّه سبحانه إلا إلى موضع سجودك؟

هل كان منتهى بصرك لمّا أصبحتْ قامتك بين الأرض والسماء -راكعاً للّه- إلا موضع سجودك... ؟ وهل كان ركوعك إلا اقتراب قامتك ووجهك من موضع سجودك؟

وهل فارقت التطلع إلى موضع سجودك لما اعتدلت من ركوعك؟

هكذا جعل اللَّه - سبحانه - قِبلة نظرك في صلاتك هي موضع سجودك حتى لو كنت تصلي أمام الكعبة فإن نظرك لن يفارق موضع السجود... فيا ترى ما الذي صرف النظر في الصلاة حتى عن الكعبة... . أليست هي قبلتنا في الأرض، وهي قبلة مساجدنا أنَّى كنا في هذه الأرض؟

لا جواب إلا أن نقول: النظر إلى موضع السجود عرَّفنا أن الكعبة لم تكن غاية وإنما هي وسيلة، فالنظر لموضع السجود تطلع إلى شيء فوق ذلك كله... فعن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] قال: «كانوا إذا قاموا في الصّلاة، أقبلوا على صلاتهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم. وعلموا أنّ اللَّه يُقبل عليهم فلا يلتفتون يميناً ولا شمالاً»(١).

فكيف يكون الأدب في هذا النظر... بل كيف يحتمل البصر هذا النظر إذا القلب تدبر وتفكر... ؟!

إن المؤمن - واللَّه - في حال لا يعلم به إلا اللَّه... وإن قلوب المؤمنين

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي (٦/ ٨٤).

في هذا النظر مقامات ومنازل. . . لا يعلم بتفاوتها إلا اللَّه - سبحانه.

لا، ليس الأمر أمر النظر فحسب. . . إنما هو القلب؛ القلبُ الذي ذهب كلَّ مذهب تعظيماً لربه - سبحانه - بهذا النظر. . . فأصبح الاجتماع المطلق الكامل على اللَّه وحده. . اجتماع الظاهر والباطن، والبصر والبصيرة، والرأس والجسد كله على اللَّه حين أصبح النظر إلى هذا الموضع العظيم. . وقد آن أوان سجودك للَّه فَاهْوِ كيف تشاء. . . فإنه لا يليق بحالك إلا السجود هاوياً. . .

ولكي أوضح لك اتجاه قلبك فإني أتساءل: قد فقهنا معنى التعظيم في التسبيح في الركوع، لكن كيف نفهم أن التسبيح في السجود باسم اللَّه الأعلى بقولنا «سبحان ربي الأعلى». . . علماً بأن الوارد أن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، بينما الأعلى يقتضي العلو والبعد عن الأسفل والساجد أصبح الأدنى، أَمَا كان الأوفق أن يكون التسبيح بذكر اسم اللَّه القريب أو نحوه من الأسماء الحسنى وكل أسمائه - سبحانه - حسنى وصفاته عليا؟

أليس هذا أمراً لافتاً؟!

والجواب يظهر لك أن هذا اللقاء باللَّه - سبحانه - هو لقاء حقيقي لا ريب فيه ألا ترىٰ ماذا قال اللَّه سبحانه حين كلمه في الواد المقدس من الشجرة ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؟، ألا ترى أيها المصلي كيف أنك في قيامك بين يدي اللَّه - سبحانه - كنت تعرج إلى اللَّه - سبحانه -. . . ولم لا وأنت تقرأ كلامه الذي يعرج بك قهراً. . وبعد عروج القيام يأتي عروج الركوع. . . فلقد كان هذا التحرك منك راكعاً تحركاً حقيقياً. .وهل هذا التحرك إلا مزيد عروج. . وهو تحرك القوام تعظيماً حسياً للَّه - سبحانه - يواطئه عروج القلب في معراج التقرب بل الاقتراب. . . . وكل هذا العروج للقلب إلى أعلى يوافقه النظر إلى موضع السجود. . . حتى إذا اعتدلت أيها المصلي وأخذت نصيبك من حمد اللَّه في اعتدالك لم يسعك إلا أن تهوي ساجداً، بل تعرج إلى أعلى نقطة لقلبك في صلاتك، فتبين بهذا أن هذا السجود هو العروج إلى أعلى، وهو المقام الأعلى، وهذا واللَّه هو أمل كل عبد صلى أن يرفعه اللَّه بحيث يكون أقرب ما يكون من اللَّه.

وشواهد أن العبد بلغ الأعلى هو طيب السكينة، والسكون الذي يغمرك أيها المصلي في سجودك حتى إنك لا تريد الارتفاع منه، ولا تريد

لإمامك أن يقول: اللَّه أكبر.. إنه سكون وسكينة تليق بمن بلغ مقام القرب ففاضت عليه ظلل السكينة والطمأنينة.

ومن شواهد ذلك هو أن المقال دليل الحال... وهل يمكن أن يكون تسبيح اسمه الأعلى في السجود ليشعر اللَّه عباده ببعده هو سبحانه عنهم... ؟! حاشاه - سبحانه.

وهل يتمنى عباده شيئاً إذا هم سجدوا إلا أن يرفعهم اللَّه - سبحانه وتعالى -؟ أوليس الجزاء من جنس العمل... ؟ فما جزاء من حط رأسه، ووجهه مقلوب على الأرض، وأنفه راغم تعبداً للَّه... إلا أن يرفعه اللَّه إلى أعلى... ؟ وماذا أعظم في تصور الرفعة أكبر من هذه الإشارة التي لا يتصور مداها أحد: «سبحان ربي الأعلى».

أيها الساجد بين يدي ربه سبحانه: أرأيت قربك الآن من ربك.. لقد كان هذا القرب أمراً منطقياً يسير مع نظام الصلاة، ونظام العروج والتقرب والتقريب «أنا عند ظنّ عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرّب منّي شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليّ ذراعا تقرّبت منه

باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[١]، فانتبه فإن ربك لا يجعل القرب وحده يلف الفكر والحال، ويهيمن على السجدة، وإنما التهيئة العظيمة التي سبقت هذا القرب العظيم.

لقد كان الحمد والثناء على اللَّه أولًا في الفاتحة وهي المثاني... وهذا أفضل ما يكون كسبب لإجابة الدعاء..ثم كان كلام اللَّه قبل كل طلب، ثم يأتي الحمد ثانية في الاعتدال، وهنا يكون العبد قد وفّى السبب ومهد الطريق لإجابة الدعاء وهذا هو المنتهى في الحمد إذ هو ما يسمى بالثناء وهو الحمد بعد الحمد، فيكون الحث على الدعاء في السجود...

حُقَّ لموسى عليه السلام أن يطلب بعد كلام ربه له، أعظم طلب فأعطاه اللَّه سبحانه طلبه وزاده من فضله، فقال اللَّه: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٤ - ٣٥].

فليس الحمد الذي مر في الصلاة وحده سبباً لإجابة الدعاء في السجود

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

إنما كان كلام اللَّه - سبحانه - هو أعظم الزلفى إلى اللَّه - سبحانه -.

أرأيت التكامل في هذه الصلاة... أرأيت الوحدة الموضوعية في الصلاة.. أرأيت كيف أن كل ركن غاية، ثم كل ركن يجري ليحقق القرب والاقتراب والخشوع في النهاية.

* * *

العامل العاشر: قبس من الجلسة بين السجدتين

يا أيها المصلي: تفكر في جلستك بعد سجدتك. . . التفت إلى شكل هيئتك؛ وها قد أفضتْ بك سجدتك إلى الجلوس بين يدي اللَّه العظيم حيث إنك جالس على الأرض بأبلغ أشكال التذلل والترجي والتوسل والطلب، وهذا هو حقيقة ما في هذه الجلسة من معان. . .

إن المتوسل مِنْ مَلِكٍ من الملوك يبلغ به الطلب غايته ويبلغ به التذلل نهايته حينما يجلس جاثياً متوسلًا راجياً متذللًا. . . وللَّه المثل الأعلى، وهكذا هي الصلاة تفيض خشوعاً من منظرها قبل معرفة ذِكرها وقبل معرفة فقهها أو أحكامها.

فطالب القبول من ربه لا يكتفي بطريقة واحدة، ولا حالة واحدة، ولا رفع يدين مع دعوات، كما هوالشأن في الداعي وما أعظمه. . . ولكنها هنا الصلاة التي شرعها اللَّه.

تتنوع الأذكار وتتنوع هيئات التذلل والتعبد والرجاء والإشفاق والإنكسار.

فهل مطلوبنا قليل..؟! وهل تعبدنا لربنا - سبحانه - إلا غايتنا.. وهل قبول اللَّه - سبحانه - لعبادتنا نفل يمكن أن نستغني عنه..؟!

وهل العتق من النار أمر يقبل التفاوض.. وهل غير الجنة من دار إلا النار؟! نسأل اللَّه العافية.

ولو كان أمر هذه الجلسة المشحونة تعبدا للَّه - سبحانه -؛ هيئة وشكلًا اقتصر على هذا الجثو بين يدي اللَّه من دون أي ذكر من أذكار الصلاة لكانت أمراً عظيماً، فكيف وذكر هذه الجلسة هو الدعاء الخالص.

تذكّرْ واسترجع أذكار كل الأركان التي سبقت الجلسة وستجد أن كل الأركان التي مرت معك شُرع فيها أذكار معينة مع ما شرع فيها من دعاء مخصوص أو مطلق.. حتى السجود فإنه قد شرع فيه الذكر وهو التسبيح نصاً محدداً كما رغَّب النبي ﷺ بكثرة الدعاء... إلا جلستنا هذه -جلسة ما بين السجدتين- فإنها دعاء خالص لا ذكر فيها ولا تسبيح ولا ثناء.. واللَّه سبحانه هو أهل الثناء والمجد، ولكن هذه هي السنة.

فهل يمكن لهذا الداعي أن يذهل عن كلمات دعائه، مع حاله وهو جاثٍ بين يدي اللَّه العظيم - سبحانه -.

تأمل في حالك هذا كثيراً فواللَّه إنه موطن لا يليق فيه الشرود أو اللَّهو. . . إنه أبعد ما يكون عن الغفلة.

أيها المصلي: تذكر أن جلستك هذه هي جلسة رسول اللَّه ﷺ حين يريد اللَّه أن يقبل شفاعته فيأذن له بالدعاء بالشفاعة مع الجثو: «يا محمد ارفع رأسك وسل تُعطَ واشفع تُشفَّعْ»(١).

تذكر أنه ﷺ ما أجيب في سجوده. . وأنه لم يدع في سجوده إنما هو كما قال ﷺ: «ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً»(٢).

فيرفع رأسه من سجوده فلا يذكر بعد رفع رأسه إلا الدعاء وطلب البدءِ بالحساب أول مرة، وتتكرر نفس الصورة عند الشفاعة بفتح باب الجنة. . .

فلا تغفلن عن جلستك هذه فإنها جاءت بعد سجدة القرب والإذن لك بأن ارفع رأسك أيها العبد المصلي وسل تُعْطَه، ولذا لا تجد في هذه

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٣).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٣).

الجلسة شيئاً ثابتاً إلا الدعاء الثابت فحسب، فلنكن في مستوى الموقف العظيم بين يدي ربنا العظيم - سبحانه وتعالى.

أيها الجاثي راجياً: انظر في الكلمات السبع الواردة في السنة لهذه الجلسة، ولسوف تجد أنها شملت كل شيء، وأن اللَّه إذا أعطاك سؤلك هذا - وهو الكريم سبحانه - فقد جمعتَ خير الدنيا والآخرة فتأملْها جيداً: «رب اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني، واجبرني، وارفعني»[(١)].

كم يفوتنا من الخشوع في هذا الدعاء... ويفوتنا رفع هذا الدعاء بروح الاضطرار... لغفلتنا عما شمله وحاجتنا العظمى لكل دعوة فيه، لقد جمع هذا الدعاء أفضل الأدعية في أفضل المواضع.

انظر في هذا الدعاء وانظر في آخر البقرة وهي أفضل آيات الدعاء والتي

(١) هذه مجموع روايات الأحاديث التالية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول اللَّه يقول بين السجدتين في صلاة الليل: رب اغفر لي، وارحمني، واجبرني، وارزقني، وارفعني» رواه ابن ماجه (٨٩٨) وصححه الألباني.
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: «اللَّهم اغفر لي وارحمني وعافني واهدني وارزقني» رواه أبو داود (٨٥٠) وحسنه الألباني.

اختصت هي والفاتحة بأن دعاءهما قد أجيب وتم. . فلا يعوز العبد شيء إلا أن يرفعه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، انظر في هذا الدعاء ثم انظر في الدعاء المجاب ليلة القدر بالعافية «اللَّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[1].

انظر في هذا الدعاء ثم انظر في دعاء المؤمنين المجاب إذا تواجهوا مع الكافرين ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٥٠)، وصححه الألباني.

العامل الحادي عشر: قبس من (التحيات للّه)

عن عبد اللّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: علّمني رسول اللّه ﷺ التّشهّد، كفّي بين كفّيه، كما يعلّمني السّورة من القرآن[١]. وفي لفظ فإذا قعد أحدكم في الصّلاة فليقل: «التّحيّات للّه، والصّلوات والطّيّبات، السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة اللّه وبركاته، السّلام علينا وعلى عباد اللّه الصّالحين، فإذا قالها أصابت كلّ عبد للّه صالح، في السّماء والأرض. أشهد أن لا إله إلّا اللّه وأشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله. ثمّ يتخيّر من المسألة ما شاء»[٢].

كم تساءل أحدنا من قبل عن موقع التحيات في آخر الصلاة! أليست التحايا تكون أولى ما تكون عند أول اللقاء. . . ؟! أليست تحية الإسلام في الأصل تكون أول اللقاء؟!

فما حكمة مجيئها في آخر الصلاة؟ وهل لهذا ارتباط بموضوع الخشوع

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٥٩١٠)، ومسلم (٤٠٢).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري (٥٨٧٦)، ومسلم (٤٠٢).

في الصلاة؟ أم أنه تحليل عقلي منطقي يزيد العلم ولا يزيد الخشية والإيمان؟

والجواب: إننا لن نبلغ المعرفة الحقة ما لم نعش الصلاة بحق. . . وإننا إن طلبنا الفهم والعلم ربما نظفر به لكن إن عشنا الخشوع حقاً لا بد أن نظفر بالفهم الحق فوق ذلك، ونزداد معه إيماناً، فإن العلم الحق هو ما زاد صاحبه إيماناً وخشية، واللَّه - سبحانه - يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

فكل من تَطلَّب كشف السر من خلال الجواب الفكري المجرد فليبحث عن سره في غير الصلاة. . .

هنا لا بد أن تَستَخرج الجواب من ينبوع الخشوع المتفجر من القلب المعايش، وليس من الفكر المتناوش. . .

فإن موقع التحيات في هذا المقام وفي هذا الختام هو الموقع الحق الذي سواه يعني الخطأ وسوء الأدب مع اللَّه. . . وإن غاية التأدب أن تكون التحيات في الختام وليس في أي موقع آخر من مواقع الصلاة. . . اللَّهم إلا التشهد الأوسط، فإن التشهد الأوسط هو نصف التحيات عند

انتصاف الصلاة وليس تمام التحيات عند تمام الصلاة، ثم إن الأصل في تشريع الصلاة الرباعية ركعتان فكان تشريع التحيات أولًا عند تمامها فلما زيدت في الحضر زيدت التحيات، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «فرض اللَّه الصّلاة حين فرضها ركعتين ركعتين، في الحضر والسفر، فأقرّت صلاة السّفر، وزيد في صلاة الحضر»[(١)]، أما المغرب فعلىٰ ما هي عليه.

هكذا جاء ختام هذه العبادة العظيمة... هكذا أحكمها، وأظهر حكمته فيها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ واللَّه وحده أعلم.

إنه لقاء مع اللَّه العظيم وليس لقاء مع العبد حتى تحيِّيَه بصراحة التحية من أول اللقاء.. إنك لن تحيِّيَّه ولن يقبل منك أن تحيِّيَه، ولن يفتح لك فتحيِّيَه حتى تقدم بين يديه في هذه الصلاة الزلفى العظمى التي شرعها هو - سبحانه -؛ من دعاءِ استفتاحٍ، ثم تلاوة كلامه - سبحانه -، ثم الحركة إليه - سبحانه - بالركوع والتعظيم، ثم الاعتدال إليه مع حمده، ثم الارتقاء بالسجود بين يديه، ثم الجلوس والطلب منه - سبحانه - بجلسة الشفاعة العظمى. واللَّه أعلم.، ولم يبق بعد هذا إلا بلوغ تحية اللَّه العظيم

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٣٤٣)، ومسلم (٦٨٥).

سبحانه. . . ولو كانت التحية في أول الصلاة لكانت مستحقة الجواب لكل من حيا، ولكن كم من رجل ردت عليه صلاته؟ فأنى له أن تقبل تحيته لو حيا؟ وماذا أعظم للعبد من أن يقبل اللَّه تحيته فيجيبه. .؟! وأي داعٍ لإحسان كل المقدمات التي مرت في الصلاة لأجل أن يقبل اللَّه تحيته؟!

ثم انظر أليست الصلاة هي اللقاء. . . أليست عبادتها منازل في التقرب إلى اللَّه والقرب منه؟ ألم يقل اللَّه - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ في آخر أفعال الركعة ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] ، وقد قال له اسجد وتقرَّب فماذا بعد السجود من قُرْب، ومن ثم كانت ذروة القرب بالسجود، وكان الإذن بالطلب بعده مباشرة وذلك في طلبه بعد السجدة مباشرة، **ثم جاء ختام ذلك كله بالتحيات لتكون هي القرب ذاته ومن ثم استحقت ألفاظ التحيات تحديداً وتخصيصاً، وبذا أصبحت عنوان تحقق المقابلة مع اللَّه سبحانه** - وللَّه المثل الأعلى -، فإنه لا يمكن أن تكون تحية في لقاء ما لم تكن مباشرة ومواجهة ومشافهة، فهذه التي قطعت كل لفظ احتمل تأويل اللقاء مع اللَّه - سبحانه - فبهذه التحيات التي يرفعها العبد لربه، وبهذا اللفظ الذي اتحدت فيه روايات أحاديث التشهد جميعاً

وهو: «التحيات» تَيقنا تحقق اللقاء مع اللَّه - وللَّه المثل الأعلى سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وإن كنا متيقنين من هذا إيمانياً... لكن بهذا اجتمع العقل والقلب، واجتمع اللفظ المنطوق مع خبر الصادق المصدوق ﷺ، مع يقين القلب السابق بخبره من أول الصلاة..

فهل يملك العبد الانصراف في التحيات وعن التحيات؟!

إن تشريع التحيات من رحمة اللَّه بالعبد... فاللَّه - سبحانه - لا يريد من العبد أن يشرد هنا حتى وإن شرد في غيرها، فلا يزال سبحانه يسوق قلب عبده إليه بما شرع سوقاً من أول تكبيرة الإحرام، إلى الهيئات وأذكارها، إلى السجود، إلى الجلوس بعده، إلى التحيات... ليبلغ به الذروة في الختام، ولأن البعض لم يدرك كل ذلك المراد، ولم يشعر بكل ذلك السوق جاء هنا اللفظ الذي لا يحتمل التأويل «التحيات».

ربما قال قائل جاءت (التحيات للَّه) ولم تأت (التحيات لك يا اللَّه) فكيف تكون مباشرة؟

والجواب: - هكذا القرب من اللَّه - سبحانه - فهو - سبحانه - قريب

في علوه، وذلك كقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإن في ﴿قُلْ﴾ مباشرة الخطاب من اللَّه بالأمر لرسول ﷺ أن يخبر عن اللَّه... ومع هذا فتأمل كم في ﴿هُوَ﴾ من احتجاب الذات، والعظمة التي لا تنتهي لتصورها حتى لا يكاد يُفهم منها شيء، وكم هو الظهور في قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ حتى إنه ليس أظهر منه شيء، فاجتمعا معاً ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾، كذلك «التحيات للَّه» فـ«التحيات» من القرب والمشافهة ما لا تكاد توصف، و«اللَّه» سبحانه من العظمة ما لا منتهى لعظمته - سبحانه - مع كمال تعريفه وقربه... وبهذا يجتمع اللفظان حيث يجتمع البحران أو المعنيان، وبهذا تأخذ التحيات عظمتها، وبهذا تبلغ الصلاة منتهاها.

لقد قتلت العادة والغفلة من صلاتنا الكثير الكثير، وإلا فمتى كان أحدنا يحلم في منامه في هذه الدنيا أن يؤذن له بأن يلتقي بربه - سبحانه - ثم يؤذن له أن يحيِّيه؟!

ألا أيتها القلوب أفيقي.

❊ ❊ ❊

العامل الثاني عشر: قبس من الإشارة بالشاهد للشهادة

تأمل أيها العبد الموحد إلى هذا التشريع العظيم: لقد كان مصب نظرك طوال صلاتك هو موضع سجودك لكنك ما إن جلست للتشهد حتى توجه البصر والبصيرة إلى شاهد اليد اليمنى الذي ارتفع بالشهادة للَّه موحداً. . . سواءً كان ارتفاعه مع حركتها أو مع إشارتها الثابتة دون تحريكها، فإن تحريكها أو تثبيتها ثابت ومحتمل، وإن المقصد هو هذه الشهادة العظمى شهادة التوحيد. .

فأي مؤمن يغفل وقد اجتمع له السمع والبصر والبدن واللسان في آن.

حيث التركيز بالنظر، والتنبيه بالذكر، والتنبيه بالإشارة وتأكيدها، وإن ذلك كله اجتمع مع شهادة. . . بل مع أعظم شهادتين. . . فتأمل ذلك، واذكر أمام مَنْ تَشْهد هذه الشهادة؟

إنك تعلن شهادتك بين يدي عالم الغيب والشهادة. . . بين يدي من لا يحتاج إلى إعلانك ليعلم. . لكنه يحب أن يسمعها من عبده كما هي في قلبه. . . فليحضر القلب فهو الشاهد الحق، واللَّه ناظر إلى شهادة يقينه.

العامل الثالث عشر: قبس من الصلاة على رسول اللَّه ﷺ في الصلاة

إن للصلاة على رسول اللَّه ﷺ فضلًا عظيماً ولها معانيَ عظمى، لكنك وأنت تصلي على رسول اللَّه ﷺ هنا إنما تصلي عليه وأنت بين يدي اللَّه - سبحانه -، وهذا شيء آخر ومعنى لا يكاد يدرك.

فالحقيقة هي أنك تدعو لرسول اللَّه ﷺ أثناء لقاءك باللَّه أن يرضى اللَّه عن رسوله ﷺ أكثر، ويرفع درجة أكثر وأكثر وما إلى ذلك... أليست الصلاة دعاء؟

والحقيقة هي أنك بهذا تُكَرَّم... حين يُسمح لك في هذا الموقف العظيم أن تدعو لأعظم مخلوق عند اللَّه سبحانه.. تُكرَّم لأنك تدع بدعاءٍ مجاب سلفاً..وتُكَرَّم لأنك بهذا الدعاء يفتح الباب لدعائك فيجاب - بإذن اللَّه... تكرَّم لأن إجابة هذا الدعاء بعشرة أضعافه «من صلى علي صلاة صلى اللَّه عليه بها عشراً»[1]، وتكرَّم لأن لك كل أجرٍ آخر وارد في الصلاة على رسول اللَّه ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (٤٠٨).

فهل يليق بمن يَدْع اللَّه - سبحانه - لسيد الأولين والآخرين محمد بن عبداللَّه ﷺ أن يدعوه بقلب غافل؟

تنبه أيها العبد: إنك توشك أن تَختِم الآن صلاتك بالصلاة على رسول اللَّه ﷺ، **فتنبه إلى هذه الوحدة العظيمة في التشريع، فلكأن الأذان للصلاة مع ذات الصلاة شيءٌ واحد، فإن المؤذن حين أذَّن ذَكَر الشهادة لرسول اللَّه ﷺ دون أن يصلي عليه في الأذان، فجاءت الصلاة عليه ﷺ كجزء لا يتجزأ من الصلاة..**

لقد جاءت الصلاة عليه ﷺ كجزء من أجزاء أكرم عبادة وهي الصلاة، وجاءت في مسك ختامها، وجاءت بأكمل صيغ الصلاة عليه ﷺ.

لقد كانت الصلاة عليه في الصلاة إشارة ظاهرة إلى فضله ﷺ علينا في هذه الصلاة التي صليناها وهي أنها كما صلاها هو وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[(١)].

إن الصلاة على رسول اللَّه ﷺ ينبغي أن ترقى بالبصيرة الإيمانية معها

(١) رواه البخاري (٦٨١٩).

إلى درجة الإحسان.. نصلي عليه ﷺ كأننا نراه... كيف وهذه الصلاة التي نصليها كلها ما أخذناها إلا عنه هو ﷺ.. كيف لا واللَّه ناظر إلى عرفان العارفين بفضله.. البالغين بهذا العرفان من القرب إلى درجة كأنهم يرون من يصلون عليه ﷺ، وكيف لا ونحن في هذه الصلاة وهذا اللقاء إنما نسلم عليه مباشرة وذلك باللفظ الذي حدده اللَّه واختاره لكل مسلم يصلي عليه وهو في صلاته خاصة دون الصلاة عليه في أي موطن آخر فيقول: «السلام عليك أيها النبي».

كيف واللَّه سبحانه ذكر رسوله ﷺ حين ذكر لقاءه بموسىٰ في الواد المقدس فقال: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤ - ٤٦]، لكنه حين نفى وجوده في ذلك المكان ونفى شهادته ذلك اللقاء العظيم، أثبت له الشهادة والحضور في ختام كل لقاء يلاقي نصه كل مصلٍّ من أمته ربه سبحانه

مباشرة إلىٰ يوم القيامة... بكلمة يصعب علىٰ أحد تصور حقيقتها «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»، وأقرب ما يقال لفهمها حتى الآن هو أنك أيها المصلي تصلي عليه كأنك تراه ﷺ.

وسوف أؤجل بيان عجائبها بإذن اللَّه إلى كتاب خاص عن رسول اللَّه ﷺ إن شاء اللَّه، لكن يكفي هذا التذكير للانطلاق في منازل الإحسان دون غلوٍّ ولا جفاء.

* * *

العامل الرابع عشر: قبس من دعوات ختام الصلاة

كم مرةً دعى موسى عليه السلام ربه - سبحانه وتعالى -، في ذلك القرب؟ لقد دعا موسى ربه - سبحانه - فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٥- ٢٩] ويبقى الدعاء هو سمة الصلاة، وهو روحها وسداها...

إن من عرف أن صلاته كلها دعاء أعطاها حقها من تذلل الداعي واضطراره، فصلاتنا هذه كلها دعاء من أولها إلى آخرها... ففي أولها رويت بعض أدعية الاستفتاح وهي دعاء خالص كقوله: «اللَّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللَّهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد، اللَّهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»[1] وغيرها من أدعية الاستفتاح.

حتى في قراءة القرآن كان ﷺ إذا مر بآية سؤال سأل وإذا مر بآية عذاب استعاذ، وهكذا ورد الدعاء في الركوع وفي السجود وفي مواطن

(١) متفق عليه. رواه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨).

أخرى. . . هنا يظهر مقام الدعاء الأخير إذ يقول النبي ﷺ لما سُئِل عن أي الدعاء أسمع؟ فقال: «جوف الليل الآخر، ودبر الصلوات المكتوبات»[١].

أرأيت مزية الدعاء الأخير في الصلاة إذ سُبِق بالصلاة على رسول اللَّه ﷺ، ثم إن من رحمته - سبحانه - أن جعله في الختام وهو أفضل، فما أكثر ما ينسى ابن آدم أموراً مُهمَّة في أوقاتها ومواضعها فتتساقط منه شيئاً فشيئاً، فيتمنى التعويض بأي طريق وطريقة، فيدخل اللَّه - سبحانه - الدعاء في الختام ويجعله مشروعاً ومفتوحاً للعبد فليذكر ما شاء وليستدرك كيف شاء وليدع بما شاء.

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٩) وحسنه الألباني.

العمل الخامس عشر: الحاكم ما بين التخفيف والإطالة

ليس بالضرورة أن تكون كل صلواتنا بطيئة لتكون خاشعة، وإن على المرء بعدما يتعود الخشوع في صلاته الطويلة أن يتعوده في صلاته الخفيفة...

إن الكمال هو أن يلازمك الخشوع وإن تغيرت صورة الصلاة طولًا وقصراً كثرة وقلة.

فلقد صح أن النبي ﷺ خفف بعض الركعات، فهل يشك أحدٌ أنه لم يكن خاشعاً فيها... .؟!

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يخفف الركعتين اللتين قبل صلاة الصبح حتى إني لأقول: هل قرأ فيها بأم القرآن»[١].

فالمسلم يعيش قلبه أحياناً مع اللَّه في دقيقتين كما يعيش في ساعتين، وروحه تحتاج إلى الوجبة الخفيفة كما تحتاج الوجبة الدسمة، والسعيد من

(١) رواه البخاري (١١١٨).

لم تذهله سرعة حركته الصحيحة عن خشوعه وخضوعه لربه - سبحانه - فقلبه في غاية السكون والخشية وإن خفت الحركة بالأركان الظاهرة وقد قال موسى عليه السلام ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٤].

لكن حاكم حركاته هو الإقبال على اللَّه وتلذذ القلب بلقاء اللَّه، وأنى لقلبٍ يتلذذ أن يجعل سائر حالاته خطف الصلاة والإسراع فيها منفرداً.

لابد أن ينفلت اللسان من التقيد بالعد ما دام الشرع لم يقيد بذلك... لابد أن يتبع القلب في انطلاقه في قراءة القرآن أو التسبيح أو في الدعاء أو في ذكر اللَّه أو في طول القيام أو طول الركوع أو طول السجود أو الاعتدال أو الدعاء بعد التشهد... فكم من القلوب تنطلق فيحكم جماحها قيد العدّ فيخسر العبد قلبه ويكسب لسانه، ولو انطلق مع لسانه وذهب لعاد يخير لم يحسب له حساباً... لقد انطلق أناس مع القرآن في القيام فما اسطاعوا التوقف إلا عند سورة الناس في ركعة، وانطلق آخرون في غيره من الأركان كالسجود حتى حسبه الجاهل قد مات... وهو والله الحي.

هكذا الشأن في الأذكار المطلقة؛ فيخرج العبد ليذكر اللَّه مائة مهللًا

فينفلت بعد المائة حتىٰ يذهب إلى عد لا يعلمه إلا اللَّه وكفاه ذلك، وكفاه أن قليله يقوده إلى ربه وهو في ذروة التعظيم والإجلال والتقريب.

❊ ❊ ❊

العامل السادس عشر: الختام بالدعاء

لقد طلب موسى عليه السلام في ختام ما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون وزيرا، وعلل ذلك فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٣ - ٣٥].

وهكذا يأتي دعاء النبي ﷺ المخصوص من ربه فيقول ويعلمنا أن نقول: «اللَّهم اعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك».

إن هذا الحديث جاء في سياق عجيب فلقد روى معاذ بن جبل- رضي الله عنه - أنّ رسول اللَّه ﷺ، أخذ بيده وقال: «يا معاذ واللَّه إنّى لأحبّك «واللَّه إنّي لأحبّك»». فقال: «أوصيك يا معاذ، لا تدعنّ في دبر كلّ صلاة تقول: اللَّهمّ أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[(١)].

معاذ؛ حِبُّ رسول اللَّه ﷺ، ورسول اللَّه ﷺ يخبره أنه يحبه، ويحلف له باللَّه هنا أنه يحبه قبل أن يقدّم له هذه الوصية المخصوصة... أفيمكن فك ارتباط المقدمة عن موضوع الوصية؟!

(١) رواه أبو داود (١٥٢٢) وصححه الألباني.

«**أعني على ذكرك وشكرك**». . . هذا هم يحمله المسلم إلى الأبد فهو يخشى على هذه العبادة أن تنقطع. . لذا فهو يدعو اللَّه بها أبداً، وخصوصاً وأنه تذوق لذتها الآن. . وودّعها الآن.

«**أعني على ذكرك وشكرك**». . . ليس الدعاء بها دعاء المواصلة والثبات فحسب وإنما هو دعاء المزيد. . فهو بعدما اطلع على مقامٍ عالٍ في لقائه ربه سبحانه. . . علم أن ثمة مقاماً أعلى فتطلع إليه ودعا به. . . وكأنه دُعِي إليه.

كل هذا جاء بعد التقدمة العظيمة «يا معاذ إني لأحبك» فهي هدية المحب لحبيبه. . .

«**أعني على شكرك وذكرك وحسن عبادتك**» هكذا يقولها ﷺ بعد كل صلاة فريضة. . فهو يدعو اللَّه أن يعينه على كل ذكر وشكر، وعلى الأخص أن يعينه على صلاة الليل لرباط الشكر بينهما مع توحد جنس صورة العمل وهو الصلاة، ولأن من حافظ عليها حافظ على ما دونها، ومن حافظ عليها ازداد إخلاصه وخشوعه فيما دونها، فإن من حافظ عليها أدى - بإذن اللَّه - حق الشكر لقول النبي ﷺ - فيها خاصة - «أفلا أكون عبداً شكوراً».

❊ ❊ ❊

أدعية الصلاة وأذكارها الصحيحة

إن أذكار المصطفى ﷺ من أعظم خزائن الخشوع وعيونها، إنها أذكار أعظم الخاشعين في لقاء رب العالمين... أذكار من تلقى الأمر بالصلاة مباشرة من ربه كما في الصحيح... ولكن لكل ذكرٍ من أذكاره ﷺ ما ليس للذكر الآخر... فليحرص طالب الخشوع أعظم الحرص على حفظ الأذكار الأخرى بإجادة... لينوع رفعها إلى اللَّه سبحانه بين الفينة والأخرى..

وسيرى من فيوضات الخشوع بالأذكار الجديدة... مالم يره من قبل مهما كان خشوعه... وتسهيلًا لحفظها فقد جمعت أكثر الحديث الصحيح من أذكار المصطفى ﷺ في صلاته.

أولًا: أذكار الاستفتاح:

الأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا كبر للصلاة سكت هنيهة، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: «أقول: اللَّهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت

بين المشرق والمغرب، اللَّهم نقني من خطاياي كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس، اللَّهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد»[١].

الثاني: عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول بعد تكبيرة الإحرام: «سبحانك اللَّهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»[٢].

الثالث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا جاء فدخل الصف وقد حفزه النفس، فقال: «الحمد للَّه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه» فلما قضى رسولُ اللَّه ﷺ صلاتَه قال: «أيُّكم المُتكلِّمُ بالكلماتِ؟» فأرَمَ القومُ. فقال: «أيُّكم المُتكلِّمُ بها؟ فإنه لم يَقُلْ بأساً» فقال رجلٌ: جئتُ وقد حفَزَني النَّفَسُ فقلتُها. فقال: «لقد رأيت اثني عشر ملكاً يبتدرونها أيهم يرفعها»[٣].

الرابع: عن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشكرين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للَّه رب العالمين لا

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).
(٢) رواه مسلم (٣٣٩).
(٣) رواه مسلم (٦٠٠).

شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللَّهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»[١].

الخامس: وعن عاصم بن حميد قال: سألت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان يفتتح رسول اللَّه ﷺ قيام الليل؟ فقالت: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، كان إذا قام كبر عشراً، وحمد اللَّه عشراً، وسبح اللَّه عشراً، وهلل عشراً، واستغفر عشراً، وقال: «اللَّهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني، ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة»[٢].

السادس: وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان - أي: النبي ﷺ - إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللَّهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر

(١) رواه مسلم (٧٧١).
(٢) رواه أبو داود (٧٦٦) وصححه الألباني.

السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

السابع: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: «اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت مالك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد؛ أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه»[٢].

وفي رواية لأبي داود أن رسول اللَّه ﷺ كان في التهجد يقوله بعدما يقول: اللَّه أكبر.

---

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

الثامن: عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى النبي ﷺ يصلي من الليل فكان يقول: «اللَّه أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة، ثم استفتح فقرأ البقرة...»[١].

ثانياً: أذكار الاعتدال من الركوع:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع، قال: «اللَّهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شيئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعتَ ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ»[٢].

الثاني: وثبت هذا الحديث من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ولفظه: «اللَّهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبدُ وكلنا لك عبد: لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ»[٣].

---

(١) رواه أبو داود (٨٧٤) وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (٤٧٨).
(٣) رواه مسلم (٤٧٧).

الثالث: وعن رفاعة بن رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا نصلي يوماً وراء رسول اللَّه ﷺ فلما رفع رسول اللَّه ﷺ رأسه من الركعة وقال: سمع اللَّه لمن حمده قال رجل وراءه: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف رسول اللَّه ﷺ قال: «مَنِ المتكلم آنفاً؟» قال الرجل: أنا يا رسول اللَّه، قال: «لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولًا»[١].

الرابع: وثبت عنه ﷺ من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: «لربي الحمد لربي الحمد يكررها حتى كان قيامه نحواً من ركوعه»[٢].

الخامس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا قال الإمام: سمع اللَّه لمن حمده فقولوا: اللَّهم ربنا ولك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»[٣].

ثالثاً: أذكار الركوع والسجود:

الأول: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول اللَّه ﷺ كان يقول في ركوعه

---

(١) رواه البخاري (٧٩٩).
(٢) رواه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (٢/ ١٩٩)، بسند صحيح، وأحمد (٥/ ٣٩٨).
(٣) رواه البخاري (٧٩٦، ٣٢٢٨)، ومسلم (٤٠٩).

وسجوده: «سُبُّوح قُدُّوس ربُّ الملائكة والروح»[١]. معنى «سبوح» أي: الذي ينزه عن كل سوء، و«قدوس»: الطاهر، وقيل: المبارك.

الثاني: وعنها رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك، اللَّهم اغفر لي» يتأول القرآن[٢].

الثالث: عن السعدي عن أبيه أو عن عمه رضي الله عنهما قال: «رمقت النبي ﷺ في صلاته فكان يتمكن في ركوعه وسجوده قدر ما يقول: «سبحان اللَّه وبحمده» ثلاثاً»[٣].

الرابع: عن حذيفة رضي الله عنه أنه صلى مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم»، وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى» وما مر بآية رحمة إلا وقف عندها فسأل، ولا بآية عذاب إلا وقف عندها فتعوذ»[٤].

الخامس: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنه لم يبق من

(١) رواه مسلم (٤٨٧).
(٢) رواه البخاري (٨١٧، ٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).
(٣) رواه أبو داود (٨٨٥) وهو صحيح.
(٤) رواه مسلم (٧٧٢).

مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، وإني نهيت أن أقرأ راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقَمِنٌ أن يستجاب لكم»[١].

السادس: وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا ركع قال: «اللَّهم لك ركعت وبك آمنت، ولك أسلمت، أنت ربي، خشع سمعي وبصري ومخّي وعظمي وعصبي، وما استقلت به قدمي للَّه رب العالمين». وكان يقول إذا سجد: «اللَّهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه فصوره فأحسن صوره، فشق سمعه وبصره فتبارك اللَّه أحسن الخالقين»[٢].

السابع: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «اللَّهم اغفر لي ذنبي كله، دِقّه وجله وأوله وآخره، وعلانيته وسره»[٣].

---

(١) رواه مسلم (٤٧٩).
(٢) رواه مسلم (٧٧١).
(٣) رواه مسلم (٤٨٣).

رابعاً: أذكار الصلاة على رسول اللَّه ﷺ:

الأول: عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: قال بشير بن سعد: أمرنا اللَّه أن نصلي عليك يا رسول اللَّه، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول اللَّه ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال: «قولوا: اللَّهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»[(١)].

الثاني: عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول اللَّه! قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: «اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[(٢)].

وفي لفظ للبخاري وأبي داود: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وكما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» ورواه ابن حبان بهذا اللفظ (٩١٢).

---

(١) رواه مسلم (٤٠٥).

(٢) رواه البخاري (٣٣٧٠، ٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).

الثالث: عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول اللَّه! كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللَّهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(١).

الرابع: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول اللَّه! هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللَّهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»(٢).

خامساً: الدعاء ختام في الصلاة:

الأول: عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول اللَّه ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦٣٦٠)، ومسلم (٤٠٧).
(٢) رواه البخاري (٤٧٩٨).
(٣) رواه البخاري (٨٣٤، ٣٦٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥).

الثاني: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: «اللَّهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللَّهم إني أعوذ بك من المغرم والمأثم»(١).

الثالث: عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما أنه صلى صلاة فأوجز فيها فأنكروا ذلك فقال: «ألم أتم الركوع والسجود»، فقالوا: بلى، قال: أما إني دعوت فيها بدعاء كان رسول اللَّه ﷺ يدعو به: «اللَّهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللَّهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللَّهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»(٢).

---

(١) رواه البخاري (٨٣٢، ٢٣٩٧)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) رواه النسائي (٣/ ٥٤)، والحاكم (١/ ٥٢٤)، وصححجه ووافقه الذهبي، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

الرابع: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «لقيني رسول اللَّه ﷺ فقال: «إني أوصيك بكلمات تقولهن في كل صلاة: اللَّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[١].

وفي رواية: «إني لأحبك فلا تدعن أن تقول في دبر كل صلاة. . .»[٢].

الخامس: عن علي رضي الله عنه قال: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللَّهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»[٣].

السادس: عن أبي صالح عن رجل من الصحابة رضي الله عنهم قال: قال النبي ﷺ لرجل: «كيف تقول في الصلاة؟» قال: أتشهد، ثم أقول: اللَّهم أني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي ﷺ: «حولهما ندندن»[٤]. ومعنى «الدندنة»: أن يتكلم

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٤٧)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٢٥) وهو صحيح.
(٢) رواه النسائي (٣/ ٥٣)، وأبو داود (١٥٢٢) وهو صحيح.
(٣) رواه مسلم (٧٧١).
(٤) رواه أحمد (٣/ ٤٧٤)، وأبو داود (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠).

الرجل بكلام يسمع نغمته ولا يفهم[١].

السابع: وعن أنس رضي الله عنه قال: كنت مع رسول اللَّه ﷺ جالساً ورجل قائم يصلي، فلما ركع وتشهد قال في دعائه: «اللَّهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، فقال النبي ﷺ: «تدرون بما دعا؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم - قال: «والذي نفسي بيده لقد دعا اللَّه باسمه العظيم وفي رواية - الأعظم - الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطي»[٢].

الثامن: عن حنظلة بن علي أن محجن بن الأدرع رضي الله عنه حدثه قال: دخل رسول اللَّه ﷺ المسجد فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد ويقول: اللَّهم إني أسألك يا اللَّه الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم

(١) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٣٧).

(٢) رواه أبو داود (١٤٩٥)، وأحمد (٣/ ٢٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠٥) وهو صحيح.

فقال النبي ﷺ: «قد غفر له، قد غفر له»[١].

التاسع: وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللَّهم حاسبني حساباً يسيراً»[٢].

* * *

(١) رواه أبو داود (٩٨٥)، والنسائي (٣/ ٥٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٨)، وابن خزيمة (٧٢٤).
(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٨، ١٨٥)، وابن خزيمة (٨٤٩)، والحاكم (١/ ٥٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وفي مشكاة المصابيح (٥٥٦٢).

الخاتمة

إصلاح الصلاة... إصلاح الحياة

ليس الخشوع في الصلاة هو مجرد مشاعر تنتهي بالسلام من الصلاة...

إن الخشوع في القلب نور في مشكاة، والنور لا يكون مداه بحجم المشكاة والزجاجة... بل النور من المشكاة يفيض حتى يكون قلب صاحبه كأنه كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور.

سبحان من جعل لقاءه موسى عليه السلام عند شجرة منيرة... وسبحان من رفع النبي صلى الله عليه وسلم حتى أوصله إلى سدرة المنتهى التي لا توصف أنوارها وبعدها شرع له الصلاة فلابد للصلاة «أن تفيض نوراً على صاحبها... وعلى الحياة... بل على أركان الإسلام الأخرى».

تأمل وأجب: لم تعقب الزكاة والإنفاق في سبيل اللَّه بعد الصلاة في القرآن بشكل مطرد؟ ألأجل الترتيب الحكمي للأركان؟ أم لمزيد الاهتمام

فحسب؟ لا ليس هذا فحسب وإنما لأن هذه الصلاة تُسهل على العباد الإنفاق في سبيل اللَّه، - والمال محبوب القلب - قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٣]، وهكذا قال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ١١٠]، وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠].

إن الخشوع في القلب يدفع صاحبه إضطراراً إلى الإقدام في سبيل اللَّه والتقديم للَّه، لذلك كان اجتماع إقامة الصلاة مع خشية الناس وترك الجهاد تناقض غريب ينكره اللَّه سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ

كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، فإنه لما قيل لهم كفوا أيديكم فقد قيل لهم في فترة الكف هذه: أقيموا الصلاة وتزودوا منها، وآتوا الزكاة وأعدوا بها... لكن العجب أنهم لما أمروا بعد ذلك بالقتال تباطأوا وقالوا لم كتبت علينا القتال؟! إذاً فأين مفعول إقامة الصلاة؟!

إن الصلاة الخاشعة نور يفيض على صاحبها وعلى من حوله... فهي التي تعطيه الشجاعة على أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخاف في اللَّه لومة لائم... ألا ترى كيف عقب لقمان الحكيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد أمره ولده بالصلاة فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال سبحانه عن المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وأول الناس وأولاهم بحق الصلاة في الأمر بها والصبر عليها هم الأقرب فالأقرب فتأمل التدرج، قال سبحانه: ﴿وَأْمُرْ

أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧ - ١٨].

إن الصلاة الخاشعة تتقدم الأعمال الصالحة جميعاً ليس حكماً فحسب وإنما حكمة كذلك، وليس فضلًا وإنما إفضالًا كذلك وليس أجراً وإنما أثراً وثمراً كذلك... قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

إن الصلاة الخاشعة هي الدواء الذي يقضي على الخوف في قلب الخائف ويجعله شجاعاً لا يتهيب ذهاب الدنيا، كريماً لا يتخوف ذهاب المال. . . كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٣٥].

يخطأ الخواف أعظم الخطأ إذا عالج خوفه بترك الصلاة. . . فاللَّه سبحانه عالجه بإقامة الصلاة قصراً حالة الخوف على الروح فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ

وَأَسۡلِحَتَكُمۡۚ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠١ - ١٠٣].

إن الصلاة الخاشعة تضيء كالكوكب الدري فلا يقتصر نورها على الإقادم بالنفس أو المال أو بالكلمة... بل هو في الأساس تطهير لذات لنفس، وتزكيةٌ لنبع التغيير وأسه كما قال سبحانه: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والصلاة الخاشعة وحدة في الصف كوحدة صف الصلاة، واتفاق في الكلمة كوحدة الاتباع للإمام، واحتمال للرأي الآخر كوحدتهم خلف الإمام وإن أخطأ أو سها فسجد للسهو، واللَّه سبحانه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، وكما قال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].

والصلاة الخاشعة تفيض ثباتاً في الموقف العصيب واللحظة التي لا تحتمل، كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

إذاً فإن إصلاح الصلاة إنما يعني إصلاح الحياة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

إننا لا نطمع إلى إصلاح صلاة فرد يقرأ هذا الكتاب فحسب... بل ولا إصلاح حياته فحسب... وإنما الطمع في إصلاح صلاة الأمة ومن ثم إصلاح حياة الأمة...

إنه أمرٌ متلازم لا ينفك بين صلاح الصلاة وصلاح الحياة، وبين صلاح صلاة الأمة وبين صلاح حياتها.

إن مشكلتنا أننا ما زلنا نفكر بحدود الفرد وطريقة الفرد ومصلحة الفرد في أمور الدين كلها فكيف بأمور الصلاة والله عز وجل يقول: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، فالله سبحانه لا يتحدث عن إضاعة «فرد» لصلاته وإنما يتحدث عن «خَلْفٍ»

أضاعوا الصلاة، وما زال الخلف يخلف بعضه بعضاً. . . وما زال خلف هذه الأمة الحاضر يتذوق الغي الذي وعد اللَّه به ومن أصدق من اللَّه قيلًا.

قال ابن عباس «غياً» أي: خسراناً، وقال قتادة: شر[١].

ولذا أصبح إصلاح الأمة ينبع من إصلاح صلاتنا. . . وكشف غربة الإسلام يبتدأ بكشف غربة الصلاة، بدليل أن الفهم الشائع هو أن الصلاة للفرد ولا علاقة لها بالأمة أو تجديد الدين. . . بل البعض لو قرأ هذه الخاتمة لعدها نُكْراً.

وما هذا إلا من غربة الصلاة وغربة الإسلام.

حتى نداء الصلاة وشعار الإسلام وهو الأذان لم يأخذ حقه من الفهم والتأثير لأنه لم يأخذ حقه اساساً من الإنصات رغم كثرة ما ورد في ذلك، وحقيقة الأمر أن ما في الصلاة من آثار عظيمة قد رفعت في هذا الأذان العظيم، فالأذان توحيد وعمل، والأذان دين ودعوة، والأذان عمل

(١) ابن كثير (ص٨٣٩) دار السلام.

وجزاء. . . وهل الدين إلا هذا؟ فأول الأذان إعلان الغاية العظمى بالكلمة العظمى وهي: «اللَّه أكبر» أربعاً، مع ما يناسب هذا العلو في المعنى من مشروعية العلو في الصوت والمكان، وبذلك يجتمع العلو كله، ولذا كان المؤذنون هم الأعلى في المحشر فهم أطول الناس أعناقاً. . . ثم تأتي الشهادتان الأعظم تقرران المعتقد الذي هو أصل أصول هذا الدين. . . وبعد تقرير هذا المعتقد يأتي أصلح العمل الصالح؛ وهو الدعوة إلى الصلاة. . . تأتي على أنها المقتضى لما سلف؛ فمن صدق في اعتقاد تكبير اللَّه وفي الشهادتين استجاب للنداء ولبى الدعوة ومن أبى اتبع إبليس حين أبى السجود وهو أقرب حالات العبد مع ربه في الصلاة واتبعه في توليه حين يسمع النداء وله ضراط، وهكذا فإنّ مَنْ صَدَقَ في الشهادتين لم يملك إلا أن يستجيب لداعي اللَّه القائل: «حي على الصلاة».

إنَّ الأذان يجمع العمل والجزاء. . . يجمع السبب والغاية؛ فأول الأذان إعلان أن «اللَّه أكبر»، وأما التكبير في آخر الأذان فيكون إضافة معنى، والإضافة مقدمة على التأكيد. . . ففي الأولى كان إعلان المعنى وفي الآخرة تحقيق معنى التكبير والعمل بمقتضاه، كما أن التكبير الأخير جاء بعد ذكر أعظم المعاني من الشهادتين والدعوتين، فالأولى ليست كالخاتمة

في المعنى، فليس المقصود من التكبير هو الاعتقاد فحسب ولذا فإنَّ تكرر اللفظ يفهمنا أن تحقيق المعتقد الأول هو واجب الأمة والأفراد، وهم من خوطبوا بالأذان.

وفي أول الأذان تقرير الشهادتين، وفي آخر الأذان تحقيق أن «لا إله إلا اللَّه»... تحقيقها في حياة الناس كلها، وكما في المصطلح القرآني لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهي غاية الرسالات، وغاية الحياة الصالحة، وغاية الأذان، ومِنْ على هذه الذروة في التوحيد وفي المقام؛ يستقر الأذان ويتوقف في الختام.

وفي الختام لا تذكر الشهادة لرسول اللَّه ﷺ؛ لأن الغاية من رسالته ﷺ هي «لا إله إلا اللَّه»، ولأن دعوة الأنبياء عليهم السلام: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾؛ ولأن الشهادة له ﷺ قد أقرت وقررت في أول الأذان، فبقي الجزاء كما ذكرنا وهو أن الأذان تقديم وجزاءه... فأين الجزاء بشهادة أن محمداً رسول اللَّه؟ ليس الجزاء في الأذان نفسه فحسب وإنما جعل الجزاء في قول كل من يسمع الأذان «اللهم رب هذه الدعوة التَّامة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً

الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد». وهل أعلى من هذا من جزاء، جزاء لرسول اللَّه ﷺ وجزاء لداعي نفسه؟!

إن ربنا سبحانه لا يترك الأمة مستمعة للأذان منصته له فحسب... بل لابد أن تكون متجاوبة بقلوبها وألسنتها مع كل لفظة من ألفاظها، وبهذا تفهم وتتجاوب وتكافئ كذلك.

يقول النبي ﷺ: «الوسيلة درجة عند اللَّه ليس فوقها درجة، فسلوا اللَّه أن يُؤتيني الوسيلة»(١).

ثم إن في وسط الأذان «حي على الصلاة» وهي دعوة، وبعدها الجزاء بقوله: «حي على الفلاح» على المعنى المشهور لها أن الفلاح هو الجنة فكلا الدعوتين المتجاورتين دعوة لكن الأولى دعوة إلى أشرف مكان في الأرض لأداء أشرف عمل، والثانية دعوة إلى الجنة وهي أشرف وأكرم دار كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، ولذا جمع الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ في كلمة مختصرة ذلك كله فقال: «معنى **الحيعلتين**: هلم بوجهك وسريرتك إلى الهدى عاجلًا،

(١) السلسلة الصحيحة (٣٥٧١).

والفوز بالنعيم آجلًا»[١].

وحتى لو كان معنى «الفلاح» هو كل الأعمال الصالحة الأخرى فإنها جاءت ثمرة من ثمرات الصلاة...

وأصرح دعوتين في الأذان «حي على الصلاة، حي على الفلاح» فكانت الاستجابة الفورية باللجوء لمن بيده الحول والقوة ليتحقق التحول من الحال الواقع إلى مراد اللَّه سبحانه.

وهكذا هي الصلاة أصل أصول الدين العملية، وعمود خيمة الإسلام العليّة... ولذا فما تُذكر الصلاة في كثير من المواضع إلا والمراد الإشارة بالصلاة لإقامة أمر الدين كله كما في حديث: «ما أقاموا فيكم الصلاة»، فاستماع الأذان للصلاة عند الإغارة على الأقوام إن لم يرفعوا الأذان. ومن هذا الباب اجتماع القيام بأمر الدين والقيام بالصلاة بمصطلح الإقامة فقال سبحانه: «وأقيموا الصلاة» كما قال: «وأقيموا الدين للَّه» وما قال: «أقيموا الحج» ولا «أقيموا الصيام ولا الزكاة ولا سواها»، لذا كان قوله ﷺ في

(١) الفتح (٢/ ٩٢).

الحاكمين: «ما أقاموا فيكم الصلاة»، إنما يعني أقاموا دين اللَّه كله في حياتكم كلها، وليس المعنى: أقاموا الصلاة في المساجد أو تركوكم تصلون فحسب، منةً منهم وتكرماً!

والأذان دعوة كله؛ فهو دعوة للدخول في دين اللَّه... فأي دعوة أعظم وأصرح من تبليغ كل سامع لهذا النداء العالي «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول اللَّه».

والأذان دعوة كذلك إذ فيه تخصيص خير من دعا إلى دين اللَّه بالذكر والشهادة له بالاسم، ودعوة على منهجه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] والأذان دعوة صريحة للصلاة ولكل عمل صالح، وهو دعوة إلى الجنة، كما في تفسير قوله: «حي على الفلاح» الجنة، والأذان دعوة إلى خير عمل وهل قول المؤذن في صلاة الفجر «الصلاة خير من النوم» إلا دعوة صريحة، ومقارنة بين حالتين للإنسان.

ومن تأمل لفظي الدعوة في الأذان وجد أن أنسب ما يكون للدعوة الحركة، ولذا شرعت الحركة الوحيدة للمؤذن عند لفظي «حي على

الصلاة، حي على الفلاح» وتكون الحركة موافقة للمؤذن وذلك بالالتفات بالرأس ذات اليمين مرتين وذات الشمال مرتين.

إن الأمة التي ينادى عليها آخر الليل «الصلاة خير من النوم» وقد غرقت كل الأمم في منامها لن تموت الموتة الكبرى أبداً، وإنها سوف تستيقظ من موتتها الصغرى مهما طالت، فإذا استيقظت فقد قضي الأمر ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، ولكن هل يمكن أن تستيقظ لتقود وهي ما تزالل نائمة عن الصلاة، ونائمة في الصلاة؟! ليست ألفاظ الأذان بهذه السطحية التي نتلقاها نحن في العادة... ولم نذكر نحن منها هنا إلا طرفاً.

تذكر أن كل ما قلته لك إنما هو قطرة في بحر وصف النبي ﷺ للأذان بأنه «الدعوة التَّامة».

أما المنصتين للأذان فإنهم يحددون منازل فَهْمِهم، وهممهم، وغاياتهم، إذ يستمعون إلى الأذان؛ فمن المنصتين للأذان من لا يتجاوز فهمه أبعد من كون الأذان عنده إشارة لدخول وقت الصلاة، ومنهم من يرتقي إلى إجابة داعي اللَّه إلى المسجد، ومنهم يزيد ويزيد، ومنهم من

يشعر أن روحه تتشرب معاني كل فقرة من فقرات الأذان الكريمة يتلقاها من علو معانيها. . . يتلقاها وكأنه النور يتخلله من السماء ثم يتفجر من قلبه نوراً يفيض. . . إنه يشعر أحياناً بثقل تكاليف الأذان. . . وأنه ملزم أن يطير بهذا الأذان فيبلغ بدعوة الأذان الآفاق. . . ومنهم من يسأل اللَّه أن يطهر به هذا الفضاء الإسلامي المتناقض حتى ينسجم مع نداء اللَّه الكريم. . . هذا الفضاء الذي تلوث بالتشريع الشركي والربا والكبائر وصوت الشيطان الصاخب. . . حتى تصفوا الأجواء في أرض الإسلام لداعي اللَّه ليشع منها إلى بلاد اللَّه كافة.

أرأيتم لم جعلنا الحديث عن الأذان في الختام. . . مع أنه في الواقع أولًا وقبل الصلاة. .

إن هذا الختام يقول: بعدما عرفنا الصلاة الصحيحة الآن نبدأ. . . بل بعدما عرفنا الأذان ومعانيه العظيمة الآن نؤذن من جديد لنصلي من جديد. . لتنطلق الحياة الصحيحة من جديد.

الفهرس

- المقدمة ٥
- إلى الواد المقدس ١٣
- أقباس من آيات الواد المقدس ١٦
- **مقدمة الأقباس** ١٦
- لماذا موسىٰ عليه السلام وصلاتنا؟ ١٦
- القبس الأول: طابع الرحلة ١٩
- القبس الثاني: ترك الأهل والمشاغل ٢٠
- القبس الثالث: الكل يطلب نوراً ٢١
- القبس الرابع: إزالة الأذى والتطهر ٢٣
- القبس الخامس: نزع حجاب الإصدار على الذنب ٢٥
- القبس السادس: الكلام واللقاء معاً ٢٩
- القبس السابع: إثارة الاشتياق للنظر ٣٠
- القبس الثامن: المشية إلى اللقاء ٣٣
- القبس التاسع: انعدام الشكوى عند اللقاء ٣٦
- القبس العاشر: إدراك عظمة النعم بهذا اللقاء ٣٧
- القبس الحادي عشر: ذهاب المخاوف ٣٩
- القبس الثاني عشر: لذة اللقائين ٤٠
- القبس الثالث عشر: بركة اللقاء على الحياة ٤٥
- القبس الرابع عشر: الإكثار بعد اللقاء من الأذكار ٤٧
- القبس الخامس عشر: كلاهما جزء من الحياة ٤٩

- القبس السادس عشر: كلا اللقاءين تلبية للنداء ٥٠
- القبس السابع عشر: لا التفاتة في اللقائين ٥٤
- القبس الثامن عشر: حسن الظن في اللقائين ٥٥
- القبس التاسع عشر: لا تَذَكُّر لشيء خارج اللقاء ٥٦
- **صناعة جو الصلاة الخاشعة** ٥٩
- القبس الأول: استحضار الساعة بين عيني المصلي ٦١
- القبس الثاني: ربط الصلاة بظرفها يُنوِّع الخشوع ويجدده.. ..... ٦٥
- القبس الثالث: فجر خشوعك من حالتك الطارئة ٧٢
- القبس الرابع: تفاعل مع اشتياقك ولو كنت في مضجعك ٧٧
- القبس الخامس: نوِّع أذكار الصلاة تفاجأ بأنواع الخزائن ٨٠
- القبس السادس: حراسة موضع الصلاة ٨٢
- القبس السابع: حماية أجواء الصلاة ٨٥
- القبس الثامن: الجلال المحيطة بالخاشع ٩٥
- القبس التاسع: الجو الجماعي ١٠١
- **عوامل الخشوع من ذات الصلاة** ١٠٩
- العامل الأول: قبس من معاني: «اللَّه أكبر» ١١١
- العامل الثاني: قبس من القيام في اللقاء ١١٥
- العامل الثالث: قبس من دعاء الاستفتاح ١١٧
- العامل الرابع: الفاتحة وما أدراك ما الفاتحة ١٢٠
- العامل الخامس: قبس من حركات الصلاة ١٤٦
- العامل السادس: قبس من موضع النظر ١٥٠
- العامل السابع: قبس الخشوع من هيئة الركوع ١٥٥
- العامل الثامن: قبس من الحمد عند الاعتدال ١٦٠

- العامل التاسع: قبس من العروج إلى السجود ١٦٥
- العامل العاشر: قبس من الجلسة بين السجدتين ١٧٢
- العامل الحادي عشر: قبس من (التحيات للّه) ١٧٧
- العامل الثاني عشر: قبس من الإشارة بالشاهد للشهادة ١٨٣
- العامل الثالث عشر: قبس من الصلاة على رسول اللّه ﷺ في الصلاة ١٨٤
- العامل الرابع عشر: قبس من دعوات ختام الصلاة ١٨٨
- العمل الخامس عشر: الحاكم ما بين التخفيف والإطالة ١٩٠
- العامل السادس عشر: الختام بالدعاء ١٩٣
- **أدعية الصلاة وأذكارها الصحيحة** ١٩٥
- الخاتمة ٢٠٩
- الفهرس ٢٢٤